الأب توماس هوبكو

الفصح الشتويّ

نقله إلى العربية

المطران سابا إسبر

٢٠٠٦

الأب توماس هوبكو

الفصح الشتويّ

نقله إلى العربية

المطران سابا إسبر

نقحت اللغة العربية

الآنسة لولو صيبعة

٢٠٠٦

الفهرس

المقدمة ٧
١. الفصح الشتويّ ٩
٢. تعال وانظر ١٢
٣. مقدّمة مسرة الله ١٦
٤. هياكل الله الحيّة ٢٠
٥. المسيح وُلد فمجّدوه ٢٤
٦. عيد القدّيس أندراوس ٢٩
٧. رؤية الذين لا يرَون ٣٣
٨. عيد القدّيس نيقولاوس ٣٧
٩. الحبل بمريم ٤٢
١٠. عيد القدّيس هرمان ٤٦
١١. فصح شتاء ٥١
١٢. دانيال والفتية الثلاثة ٥٦
١٣. إيمان الفتية الثلاثة ٦٠
١٤. أحد الأجداد ٦٤
١٥. الأحد قبل الميلاد ٦٩
١٦. نَسَب يسوع المسيح ٧٤
١٧. لنحتفل أيّها الشعوب ٧٩
١٨. المسيح يأتي ليعيد الصورة ٨٤
١٩. شجرة الحياة المزهرة ٩٠
٢٠. مجيئا المسيح الأول والثاني ٩٥
٢١. لنفرح باستضافة السيّد ٩٩
٢٢. ماذا نقدم لك أيها المسيح ١٠٤

٢٣. الفرح العظيم........................ ١٠٨
٢٤. على الأرض السلام، وفي الناس المسّرة........................ ١١٣
٢٥. الله معنا........................ ١١٨
٢٦. «شمس البرّ»........................ ١٢٣
٢٧. الدائمة البتوليّة مريم........................ ١٢٨
٢٨. ذهب ولبان ومرّ........................ ١٣٤
٢٩. دم الشهداء........................ ١٣٩
٣٠. ختانة الربّ........................ ١٤٤
٣١. ظهور الربّ في الأردن........................ ١٤٩
٣٢. ظهور الثالوث........................ ١٥٣
٣٣. نهر الأردن........................ ١٥٧
٣٤. تقديس الماء........................ ١٦٢
٣٥. ظهرت نعمة الله........................ ١٦٧
٣٦. أعظم مواليد النساء........................ ١٧١
٣٧. الأقمار الثلاثة........................ ١٧٥
٣٨. دخول السيّد إلى الهيكل........................ ١٨١
٣٩. تطهير مريم........................ ١٨٦
٤٠. عيناي قد أبصرتا خلاصك........................ ١٩١

تقديم

يقدّم الأب هوبكو، في هذا الكتاب، وبطريقة سلسلة يفهمها القارىء من دون أي تعقيد، العقيدة الخاصّة بسرّ التجسّد، عبر عرضه نصوصاً ليتورجيّة تقرأ في زمن الميلاد، ويستعين كذلك بنصوص أخرى من الكتاب المقدّس. كما يلمّح، بشكل رقيق إنّما واضح، إلى سبيل عيش الروحانيّة المسيحيّة في قلب هذا العالم المعاصر الذي يغرق في دهريّة مدمّرة.

يجمع الكاتب، في المقالة الواحدة، بين الليتورجيا والعقيدة والحياة المسيحيّة، ولا ينسى أن يقارن بين مفاهيم الكنائس المسيحيّة حول نقطة أو أكثر بهدف رفع الغموض وجلاء الحقيقة.

أربعون مقالة تتوزّع على صوم الميلاد بأيّامه الأربعين، وترافق المؤمن يوميّاً مساعدة إيّاه على استقبال ميلاد ربّنا يسوع المسيح، بعد أن يكون قد أدرك كنه العيد وانفتحت نفسه على عطايا سرّ التجسّد.

ما يكسب الكتاب أهمّيته أنّ مؤلّفه، وهو الأستاذ في العقيدة المسيحيّة وعميد كليّة اللاهوت في معهد القدّيس فلاديمير، نيويورك، لا يكتب لأهل الاختصاص في علم اللاهوت، بل للمؤمنين العاديّين الذين يعيشون إيمانهم وسط اهتماماتهم المعيشيّة اليوميّة.

وهو بذلك يعطيهم زاداً روحياً يومياً يغذّيهم ويكشف لهم جمال عطيّة الله العظمى ألا وهي ابنه يسوع المسيح.

+ سابا

مطران بصرى حوران وجبل العرب والجولان

للروم الأرثوذكس

١

الفصح الشتويّ

ما أن يحلّ فصل الشتاء في نصف الكرة الأرضيّة الشماليّ، حتّى تبدأ كنيسة المسيح بالاحتفال بـ «الفصح البهج الثلاثيّ الأيّام». يشرح أحد المفسّرين الأرثوذكس الروس المعاصرين، كلمات تيبيكون الكنيسة الأرثوذكسيّة هذه بما يلي:

«ينتمي عيد ميلاد المسيح إلى الأعياد الكنسيّة الاثني عشر الرئيسة المدعوّة بالأعياد السيديّة. ولا تحتفل الكنيسة بأيّ منها بالوقار الذي تحتفل به بعيد ميلاد المسيح. إنّها تدعوه فصحاً: فصحاً بهجاً ثلاثيّ الأيّام[١]».

يدعى عيد ميلاد المسيح فصحاً في طبعات التيبيكون القديمة، على غرار قيامة المسيح المجيدة. تشدّد هذه التسمية على العلاقة المتينة بسرّ خلاصنا ونجاتنا من الخطيئة والموت، السرّ الذي تخبّر الكنيسة المقدّسة بواسطته عن تعاليمها العقائديّة، والذي به تجلبنا إلى احتكاك روحيّ مباشر بواسطة خِدَمها وأسرارها الليتورجيّة[٢].

---

(١) ك. نيكولسكي بوسوبيه. (دليل إلى فهم تيبيكون الكنيسة الأرثوذكسيّة الليتورجيّ)، سان بيترسبورغ، ١٩٠٠، ص ٥٣٩. لا يُعَدّ عيد القيامة من بين الأعياد السيديّة الاثني عشر في الكنيسة الأرثوذكسيّة. ففي التقليد الأرثوذكسي يعتبر عيد القيامة (الفصح) وحده «عيد الأعياد وموسم المواسم» كما تقول الأودية التاسعة من قانون الفصح.

(٢) دليل الخادم الليتورجيّ، بطريركية موسكو، موسكو، ١٩٧٧، ص٥١١.

يسمّى عيد الميلاد رسمياً بعيد ميلاد ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح بالجسد. وتحاكي طقوسه الليتورجيّة نموذج عيد الفصح، والقيامة المقدّسة. فهناك أربعون يوماً من الصوم واستعداد يسبق العيد. تضاف أيضاً ساعات ملوكيّة مع قراءات من الأنبياء والرسل والأناجيل، وترانيم عشيّة العيد، يتبعها قدّاس برامون العيد للقدّيس باسيليوس الكبير، مبتدئاً بصلاة الغروب، ومع سهرانيّة تتوّج بقانون السَحَر وترانيمه. وأخيراً بعد الاحتفال الإفخارستيّ بقدّاس القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم يوم العيد ذاته، يتابع الاحتفال ويتمّم بعيد دخول ربّنا إلى الهيكل في اليوم الأربعينيّ، ثمّ بعيد «الأنوار» (الغطاس)، ورسمياً يسمّى عيد ظهور ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح.

تتبع خِدَم الميلاد والغطاس الليتورجيّة نموذج خِدَم الفصح (موت المسيح وقيامته). فولادة الربّ ومعموديّته ترتبطان بموته وقيامته. فقد وُلد لكي يموت. واعتمد لكي يقوم.

اليوم عُلِّق على خشبة، الذي علّق الأرض على المياه
اليوم يولد من البتول الضابط الخليقة بأسرها في قبضته

إكليل من شوك وُضع على هامة ملك الملائكة
الذي بجوهره غير ملموس، يُدرَج في الأقمطة كطفل

برفيراً كاذباً تسربل، الذي وشّح السماء بالغيوم
الإله الذي ثبّت السموات قديماً منذ البدء، يتّكيء في مذود

قَبِل لطمةً، الذي أعتق آدم في الأردن
الذي أمطر للشعب منّاً في القفر، يغتذي من الثديين لبناً

ختن البيعة سُمّر بالمسامير
ختن البيعة يستدعي المجوس

وابن العذراء طُعن بحربة
وابن العذراء يتقبّل منهم الهدايا

نسجد لآلامك أيّها المسيح (٣)
نسجد لميلادك أيّها المسيح (٣)

فأرنا قيامتك المجيدة
فأرنا ظهورك الإلهي(١)

يسوع الطفل المضطجع في مغارة في مملكة أغسطس قيصر، هو المضطجع في قبر في مقاطعة بيلاطس البنطيّ. الذي فتّش هيرودس عنه هو نفسه الذي يمسكه قيافا. لقد دُفن في المعموديّة كما نزل إلى الموت بواسطة الصليب. إيّاه الذي سجد له المجوس ستسجد الخليقة كلّها له في انتصاره على الموت. فصح صليبه أعدّه فصح مجيئه. ابتدأ فصح قيامته بفصح تجسّده. سبق فصح معموديّته فأنبأ بفصح تمجيده. لهذا فالمسيحيّون يحتفلون كلّ سنة بما كان الأب ألكسندر شميمن قد سمّاه لأوّل مرّة «فصح الشتاء»(٢).

❖

---

(١) من ترانيم خدمة السَحَر والساعة التاسعة عشيّة الجمعة العظيمة وعشيّة الميلاد.

(٢) يدعو التييكون الأرثوذكسيّ الميلاد بـ «الفصح البهج الثلاثيّ الأيّام» بينما تعبير «الفصح الشتويّ» استعمله الأب ألكسندر شميمن، عميد سابق وإخصائيّ في اللاهوت الليتورجيّ في معهد القدّيس فلاديمير اللاهوتيّ، ولذكراه نهدي هذا الكتاب.

٢

تعال وانظر

يبدأ موسم الميلاد – الظهور، في الكنيسة الأرثوذكسيّة، قبل عيد الميلاد المجيد بأربعين يوماً، ويقع عشيّة عيد «الرسول الكلّي المديح القدّيس فيلبّس». لهذا يسمّي البعض صوم الميلاد «صوم فيلبّس»(١) ورغم أنّ وقوع عيد هذا القدّيس عشيّة بدء الصوم الميلاديّ، أمر عَرَضيّ، إلا أنّنا نستطيع التكلّم بشرياً، ونرى مصادفته بعيون الإيمان عنايةً إلهيّةً.

بحسب إنجيل يوحنّا، القدّيس فيلبّس هو أحد أوائل الرسل الذين دعاهم الربّ يسوع. وقد حدث هذا في اليوم التالي لدعوة أندراوس وتلميذ يوحنّا المعمدان الآخر، الذي نفترض أنّه يوحنّا الإنجيليّ نفسه، لأنّ الإنجيل لا يذكر اسمه. ونرى أنّ فيلبّس يذهب وينادي صديقه نثنائيل، تماماً كما أنّ أندرواس ذهب ودعا أخاه سمعان بطرس. يروي الإنجيل قصّة دعوته كما يلي:

في الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل، فوجد فيلبّس فقال له: «اتبعني». وكان فيلبّس من بيت صيدا، من مدينة أندراوس وبطرس. فيلبّس وجد نثنائيل وقال له: «وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة». فقال له نثنائيل: «أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟» قال له فيلبّس: «تعال وانظر».

---

(١) يقع عيد القدّيس فيلبس في الرابع عشر من شهر تشرين الثاني. لا تستخدم الكنيسة الأرثوذكسيّة عبارة (advent) للدلالة على صوم الميلاد. مع أنّ الكلمة، ذات معنى كامل، وتعود إلى التقليد الشائع في كنيسة الغرب، وتعني ببساطة «المجيء».

ورأى يسوع نثنائيل مقبلاً إليه، فقال عنه: «هوذا إسرائيليٌ حقاً لا غشّ فيه». قال له نثنائيل: «من أين تعرفني ؟» أجاب يسوع وقال له: «قبل أن دعاك فيلبّس وأنت تحت التينة، رأيتك». أجاب نثنائيل وقال له: «يا معلّم، أنت ابن الله! أنت ملك إسرائيل!». أجاب يسوع وقال له: «هل آمنت لأنّي قلت لك إنّني رأيتك تحت التينة؟. سوف تعاين أعظم من هذا!». وقال له: «الحقّ الحقّ أقول لكم: من الآن ترون السماء مفتوحة، وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان». (يو١: ٤٣-٥١).

إنّها رواية إنجيل يوحنّا تماماً. يلتقي الناس أوّلاً الرجل «يسوع الناصريّ، ابن يوسف». يلتقونه كإنسان، كأحد «الذين كتب عنهم موسى في الناموس أو الأنبياء». ثمّ يتقدّمون في معرفته. فيرون أنّه ليس فقط مجرّد نبيّ موعود أو معلّم، إنّه الممسوح، المسيح، مسيّا، ملك إسرائيل. إنّه ابن الله. إنّه الله نفسه في شكل سرّيّ.

إنّها طريقة إنجيل يوحنّا دائماً. ونقرأها في روايات المخلّع عند البركة، والمرأة السامريّة عند البئر، والمولود أعمى، وفي لقاء مريم ومرتا مع يسوع عند قبر لعازر. تعاقب الأحداث متماثل. إنّه تعاقب ضروريّ، ليس فقط تاريخيّاً، بل روحيّاً وروحانيّاً أيضاً.

يجب أن نأتي أولاً لنرى يسوع الإنسان، يجب أن نأتي لنعرفه ككائن إنسانيّ حقيقيّ، يهوديّ، رابيّ، نبيّ. يجب أن نلتقيه كابن مريم، ابن النجّار، الناصريّ. ثمّ، في ذلك اللقاء، عندما تنفتح أعيننا ويتنقّى قلبنا، نستطيع أن نرى «أشياء أعظم». نستطيع أن نتقدّم لنراه لا كمعلّم، بل المعلّم، لا كنبيّ بل النبيّ. نعرفه ليس ابن الإنسان فحسب، بل ابن الإنسان الذي تنبّأ عنه النبيّ دانيال[1]. نعرفه ليس ابن الله فقط، بل ابن الله

(١) انظر سفر دانيال ٧: ١٣-١٤

المولود من الآب قبل كلّ الدهور[1]. نعرف أن نميّزه ككلمة الله في جسد بشريّ، كصورة الله في شكل بشريّ[2]. وأخيراً نراه الله نفسه، ليس الآب بل ابن الآب، إله من إله مُرسَل إلى العالم من أجل خلاصنا[3].

الخطوة الأولى في الطريق إلى فصح الشتاء هي المواجهة (اللقاء) مع يسوع الإنسان. نحن مدعوون مع فيلبّس والتلاميذ كي «نأتي وننظر». إذا كنّا نرغب بالمجيء والنظر فعلينا أن نفعل. وسوف نرى، كالتلاميذ الأوائل «أموراً أعظم» وأكثر ممّا توقعنا. سوف نرى يسوع كمعلّم لنا، معلّمنا، وسنصرخ إليه: «يا معلّم، أنت ابن الله! أنت ملك إسرائيل». وسوف نعرفه جيّداً، من هو وما هو بالحقيقة. لكن علينا أن نأتي أوّلاً، فإن لم نأتِ لن نرى أبداً.

«يا فيلبّس العجيب
لقد أصبحت آلة محرَّكَةً بالنسمات الإلهيّة وبإلهامات الروح القدس
وإذ ترنّمت بلسانك الناريّ في العالم
بإنجيل المخلّص الفائق العالم
أحرقت الضلالة كلّها كمادة سهلة الإحراق
وكعشب الأرض الذابل
وكرزت في المسكونة بالمسيح ربّ الكلّ وسيّدهم»

«بما أنّك كنت تتخذ المراقي الإلهيّة على الدوام
مثل موسى قديماً
كنت ترتاح إلى معاينة الله
فرأيت صورته بحال جليّة عندما تقبّلت مثالها

---

(١) انظر الرسالة إلى العبرانيين ١، إنجيل يوحنّا١ : ١٧–١٨.
(٢) انظر يو١ : ١–١٨، في٢ : ٦–١١، كول١ : ١٥–٢٠، عب١ : ١–٣.
(٣) انظر يو١ : ١،٢٠ : ١٨، في٢ : ٦، عب١ : ٨. صيغ هذا النص واعتُمد في قانون الإيمانّ النيقاويّ.

لأنّ الابن هو معرفة محضة وبرهان للآب
إذ إنّ للابن وللوالد جوهراً واحداً
بذاتيّة واحدة في الكلّ بحال شريفة
وملك وقوّة ومجد وسجود واحد»

«من ذا الذي لا يغبّطك أيّتها البتول الكلّية القداسة
من ذا الذي لا يسبّح مولدك البريء من الطلق والمخاض
لأنّ الابن الوحيد الشارق من الآب بمعزلٍ عن الزمن
هو نفسه أتى منكِ متجسّداً بحال لا تُفَسَّر
الذي وهو إله بالطبع قد صار إنساناً بالطبع
غير منقسم إلى وجهين ولكنّه معروف بطبيعتين
من دون امتزاج أو تشوّش
فإليه ابتهلي أيّتها الشريفة ذات الغبطة الكلّيّة
أن يرحم نفوسنا»[١].

❖

---

(١) غروب عيد القدّيس فيلبّس.

٣

مقدّمة مسرّة الله

تعيّد الكنيسة، في الأيّام الأولى لصوم الميلاد، لدخول العذراء مريم الطفلة إلى الهيكل. ويسمّى العيد رسميّاً عيد «دخول والدة الإله الفائقة القداسة إلى الهيكل». ويُعتبر أحد الأعياد السيديّة الاثني عشر الرئيسة في الكنيسة الأرثوذكسيّة[١]، مع أن الحَدَث لم يرد في الكتاب المقدّس. ليست غايته إقامة ذكرى دخول والدة الإله إلى الهيكل تاريخيّاً، بقدر ما هو احتفال عقائديّ بسرّ الإيمان المسيحيّ، القائل إنّ كلّ إنسان مخلوق ليكون هيكلاً حيّاً لله.

حدث العيد هو أنّ مريم الطفلة ذات السنوات الثلاث، وتحقيقاً للوعد الذي قطعه والداها يواكيم وحنّة، تُقدَّم على يدي والديها إلى الله لتقيم في هيكل أورشليم. تقرأ الكنيسة في المزمور ٤٥ نبوءة عن دعوة مريم لتصير أمّاً للمسيح.

«بشذاها أبهجتك بنات الملوك وقد كنَّ بين وصيفاتك
قامت الملكة عن يمينك متردّية بألبسة مزخرفة منسوجة بخيوط مذهّبة
اسمعي يا ابنتي وانظري وأميلي أذنك
وانسي شعبك وبيت أبيك
فيصبو الملك إلى حسنك
لأنّه هو ربّك وله تسجدين
فتأتيك ابنة صور بالهدايا

---

(١) يقع في الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني، ويودّع بعد ثمانية أيّام.

وأغنياء الشعوب يبتهلون إليك
ابنة الملك كلّها بهاء في خدرها
مكتسية بألبسة حواشيها مذهّبة
بأردية مطرّزة يؤتى بها إلى الملك
في إثرها العذارى صواحبها يؤتى بهنّ إليك
يؤتى بهنّ بسرور وابتهاج يصار بهنّ إلى هيكل الملك
يولَد لكَ بنون عوضاً من آبائك
فتنصبهم رؤساء على الأرض كلّها
سأذكر اسمكَ في كلّ جيل وجيل
لذلك تحمدك الشعوب إلى الأبد وإلى أبد الآبدين».

تخبرنا القصّة الروحيّة كيف أنّ الكاهن زكريّا والد القدّيس يوحنّا المعمدان، أدخل الطفلة مريم، قدس الأقداس لتغذّيها الملائكة بالاستعداد لحبلها البتوليّ بابن الله.

بهذا الدخول، تضع مريم نهاية لـ «ظل» هيكلّ الله الأرضيّ الماديّ، لكي تبدأ «حقيقة» الهيكل البشريّ، الهيكل الروحيّ لسكنى الله، الذي هو مريم ذاتها، والذي عبرها، كلّ البشر يصيرون في المسيح والروح القدس في الكنيسة

«لنتباشر أيّها المؤمنون مرنّمين للربّ بالمزامير والتسابيح
مكرّمين مظلّته المقدّسة
التابوت المتنفّس الذي وسع الكلمة غير الموسوع
لأنّها تُقدَّم لله طفلة بالجسد بما يفوق الطبيعة
وزخريّا رئيس الكهنة العظيم يتقبّلها مسروراً بما أنّها مسكن الله».

«اليوم الهيكلّ المتنفّس للمجد المقدّس. مجد المسيح إلهنا
التي هي وحدها مباركة نقيّة

تقدّم إلى الهيكلّ الناموسيّ لتسكن في الأقداس
فيفرح الآن معها بالروح يواكيم وحنّة
ومصاف العذارى تسبّح الربّ
منشدة بالتراتيل ومكرّمة أمّه».

«إنّ القدّيسة البريئة من العيب
تدخل بالروح القدس لتسكن قدس الأقداس
وتغتذي من الملاك
التي هي بالحقيقة ستكون هيكلاً كلّيّ القداسة لإلهنا القدّوس
الذي بحلوله فيها قدّس الخليقة بأسرها
وألّه طبيعة الآنام الهالكة».

«لنحتفل اليوم يا جماهير المؤمنين باجتماعنا روحيّاً
ونمدح بحسن عبادة فتاة الله البتول والدة الإله
مقدّمة إلى هيكل الربّ، السابق انتخابها من بين جميع الأجيال
لسكن المسيح ملك الكلّ
فيا عذارى تقدّمن حاملات المصابيح
مكرِمات وفد الدائمة البتوليّة الموقّر
ويا أمّهات اخلعن كلّ حزن واتبعنهنّ مسبّحات
التي صارت أمّاً للإله وعلّةً لفرح العالم
فلنهتف إذاً جميعنا فرحين مع الملاك
بالسلام للممتلئة نعمة، المتشفّعة على الدوام من أجل نفوسنا»[١].

يدعى عيد دخول والدة الإله في التراتيل بـ «مقدّمة مسرّة الله» التي أذاعها ملائكة الله للعالم يوم مولد المسيح. إنّه الاحتفال الأوّل بالخلاص الذي يأتي إلى العالم بيسوع، الذي كانت مريم أوّل من تقبّله.

---

(١) خدمة غروب العيد

«اليوم البتول التي هي مقدّمة مسرّة الله
وابتداء الكرازة بخلاص البشر
قد ظهرت في هيكل الله علانية
وسبقت مبشّرة الجميع بالمسيح
فلنهتف نحوها بصوت عظيم قائلين:
إفرحي يا كمال تدبير الخالق»[1].

«إنّ الهيكل الكلّيّ النقاوة
هيكل المخلّص، البتول الخدر الجزيل الثمن
والكنز الطاهر لمجد الله
اليوم تدخل إلى بيت الربّ
وتُدخل معها النعمة التي بالروح الإلهيّ
فلتسبّحها ملائكة الله
لأنّها هي المظلّة السماويّة»[2].

❖

(١) طروباريّة العيد. كلمة «تدبير» باليونانيّة oikonomia، تعني حرفيّاً «خطة» التي أعدّها الله من أجل خلاص العالم.

(٢) قنداق العيد.

٤

هياكل الله الحيّة

تعتبر العذراء مريم، في الكنيسة الأرثوذكسيّة، صورة الذين خلصوا. فإذا كان يسوع المسيح هو المخلِّص، فإنّ مريم صورة المخلَّصين بامتياز. ففي كلّ أثر من حياتها، ليست الاستثناء الأعظم، بل المثال الأعظم، كما اعتاد أن يقول الأب ألكسندر شميمن. فمن الحبل بها إلى رقادها، الذي هو موتها الحقيقيّ، تُظهر كيف أنّه على كلّ الناس أن يتقدّسوا بالروح القدس كخدّام لله ومتمثّلين بالمسيح[١].

رأينا في الاحتفال بعيد دخولها إلى الهيكل كيف أنّ الترانيم تصفها باستمرار بـ «الهيكل الحيّ لمجد المسيح إلهنا المقدّس». إنّها تُمدَح بوصفها «الفلك (فلك نوح) الحيّ الذي وسع الكلمة غير الموسوع في مكان». وتُمجَّد لكونها «الهيكل الذي حوى الله». كرّسها الروح القدس لتكون «موضع سكنى القدير». دخلت إلى قدس الأقداس لتصير هي نفسها «قدس الأقداس الحيّ»، التي تجسّد المسيح فيها، جاعلاً، بذلك، إيّاها وكلّ شخص متّحدٍ معها بالإيمان «ساكن السماء».

«أيتها الكليّة النقاوة،

إذ قد صرت أرفع سمواً من السماوات

---

(١) ولادة مريم من يواكيم وحنّة هي ولادة بشريّة طبيعيّة حسب الإيمان الأرثوذكسيّ. ما من داع لتدخّل خاصّ من الله لكي يزيل «بقعة» الخطيئة الأصليّة لأنّه ما من «بقعة» تنتقل بفعل الحبل. ولهذا لا توجد في الكنيسة الأرثوذكسية عقيدة أو عيد خاصّ «للحبل بلا دنس». انظر الفصل التاسع. رقاد مريم، أيضاً أو «موتها» هو موت طبيعيّ، مع أنّه فيها تحقّق القيامة والتمجيد مباشرة، لأنّه فيها تحقّق نصر المسيح الكامل على الموت.

وهيكلاً وبلاطاً،
جُعلتِ في هيكل الله
لتُهيَّأي مسكناً إلهيّاً لحلوله».

«لنسبّح بالترنيمات وفد والدة الإله المجيد
لأنّها إذ هي هيكل لله،
تُقدّم اليوم نبوياً إلى الهيكل هديّة جزيلة الثمن»[1].

خُلقنا جميعاً لنكون هياكل لله حيّة، خلقنا جميعاً لنكون مسكناً لمجده، صُنعنا على صورته ومثاله لنثبت في حضوره. قُتل الشهيد الأوّل، رئيس الشمامسة استفانوس، الذي نعيّد له في اليوم الثالث بعد ميلاد الربّ بالجسد، لأنّه بشّر بهذا العجَب، عندما شهد أنّ «العليّ لا يسكن في هياكل مصنوعات الأيادي». فاتُّهم بسبب هذا القول، كما اتُّهم المسيح نفسه، بأنّه يخطّط لتدمير هيكل أورشليم الأرضيّ (أع٧: ٤٨؛ ٦: ١٤)[2]. كما يذيع الرسول بولس هذه العقيدة بوضوح، وبدون مواربة، عندما يكتب إلى الكورنثيّين (ولنا أيضاً): **«فإنّنا نحن (بولس وأبولّس) عاملان مع الله، وأنتم فلاحة الله، بناء الله»** (١كو٣: ٩).

«أفما تعلمون أنّكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم،
إن كان أحد يفسد هيكل الله فسيفسده الله.
لأنّ هيكل الله مقدّس الذي أنتم هو» (١كو٣: ١٦-١٧).

كما نجد التعليم ذاته في رسالة الرسول بولس إلى كنيسة أفسس، كتثبيت لكلمات المسيح الواردة في إنجيل يوحنّا:

«إنّ أحبّني أحد يحفظ كلامي، ويحبّه أبي، وإليه نأتي، وعنده نصنع منزلاً» (يو ١٤: ٢٣).

---

(١) سَحَر العيد.

(٢) أنظر يو ٢: ٢١، مت ٢٦: ٤ أنظر أيضاً الفصل ٢٩.

«**لأنّ به [المسيح] لنا كلينا [اليهود والأمم] قدوماً في روح واحد إلى الآب فلستم إذاً بعد غرباء ونزلاء، بل رعيّة مع القدّيسين وأهل بيت الله. مبنيّين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية. الذي فيه كلّ البناء مركّب معاً، ينمو هيكلاً مقدّساً في الربّ. الذي فيه أنتم أيضاً مبنيّون معاً، مسكناً لله في الروح**» (أف٢: ١٨-٢٢)[1].

يسوع المسيح، ابن الله وكلمته وصورته، تصوّر، ماديّاً وروحيّاً، في جسد مريم وهكذا تصوّر فينا. «**يا أولادي الذين أتمخّض بكم أيضاً إلى أن يتصوّر المسيح فيكم**» (غلا ٤: ١٩). هذا هو معنى الميلاد، الذي هو معنى الحياة ذاتها: المسيح فينا ونحن فيه، الله معنا ونحن معه. الروح القدس في قلوبنا، ومنها ينتشر ليقدّس العالم من حولنا. هذا ليس مجرّد رمز، أو لغة كتابيّة أو ليتورجيّة شاعريّة رفيعة. إنّه عمل جديّ. إنّها قضيّة حياة وموت. لأنّنا إمّا أن نكون أواني مختارة لله، «**أواني خزفيّة، ليكون فضل القوة لله لا منّا**» (٢ كو ٤: ٧) كما يقول بولس الرسول، أو «أواني غضب» للهلاك بغنى مجد الله (رو ٩: ٢٢).

طالما أنّنا نتابع الطريق إلى فصح الشتاء فالفرصة أمامنا واضحة. نستطيع أن نتبع «الطريق الضيّق» الذي يقود إلى الحياة، أو نمشي في «الطريق الواسع» الذي يقود إلى الهلاك (مت ٧: ١٣-١٤). نستطيع، كمريم، أن نلتصق بالربّ ونصير مسكناً له بالروح القدس. أو نستطيع بالخطيئة والأخلاق الفاسدة أن نختار الموت الذي نحن فيه ما لم يحيا المسيح فينا. «وأمّا من التصق بالربّ فهو روح واحد» (١كو٦: ١٧).

---

(١) أنظر أيضاً ١ بط٢: ٤-٥.

«لتبتهج اليوم السماء من فوق. ولتقطر السحب سروراً
في عظائم إلهنا المستغرَبَة جداً.
فها إنّ المولودة بحسب الوعد من عاقر غير مثمرة
والمنذورة مسكناً لله. الباب المتّجه نحو المشارق
تُقدَّم اليوم إلى الهيكل كتقدمة لا عيب فيها
فليبتهج داود ضارباً كنّارته قائلاً:
لتسعَ إلى الملك عذارى في إثرها
نسيباتها يتقدّمن إليها
داخل مظلّة الله ضمن مستَغْفَره
لكي تُربَى لسكنى المولود من الآب قبل الدهور
بدون استحالة. لخلاص نفوسنا»[1].

❖

(١) خدمة غروب العيد. تنسب الليتورجيا عبارة «الباب المتجه نحو المشارق» إلى مريم العذراء لأنّ مجد الربّ دخل عبر هذه البوّابة الشرقية إلى هيكل أورشليم، فأغلقت إلى الأبد وخُتمت حتّى لا يدخلها إنسان مائت من بعد، فصارت ترمز إلى مريم البتول التي ولدت ابن الله وهي بتول. انظر حزقيال ٤٣: ١-٥، ٤٤: ١-٤.

٥

المسيح وُلد فمجّدوه

تظهر أولى علامات الليتورجيا الميلاديّة مع عيد دخول السيّدة إلى الهيكل. ففي صلاة سَحَر ذلك اليوم (٢١ تشرين الثاني)، نباشر، ولأوّل مرّة، بترتيل قانون ميلاد المسيح (الكاطافاسيّات)[1]:

«المسيح وُلد فمجّدوه،
المسيح أتى من السماوات فاستقبلوه،
المسيح على الأرض فارفعوه،
رتلّي للربّ أيّتها الأرض كلّها،
ويا شعوب سبّحوه بابتهاج،
لأنّه قد تمجّد».

«لنصرخ نحو الابن المولود من الآب قبل الدهور بدون استحالة،
المسيح الإله الذي تجسّد في آخر الأزمنة،
من البتول بغير زرع هاتفين،
يا من رفع شأننا قدّوس أنت يا ربّ».

«أيّها المسيح المُسَبَّح،
لقد خرج قضيب من أصل يسّى،
ومنه قد نبتّ زهرة من جبل مظلّل مدغل،

---

(١) يُرتل قانون الميلاد في سهرانة عيد دخول السيّدة كقانون ثان في صلاة السَحَر. وقد جرت العادة أن يُرتل من بعد عيد الدخول في سَحَر كلّ عيد كبير وذلك حتّى حلول عيد الميلاد.

أيّها الإله المنزّه عن الهيولى،
فأتيت متجسّداً من البتول التي لم تعرف رجلاً،
فالمجد لقدرتك يا ربّ».

«إنّني أشاهد سرّاً عجيباً مستغرَباً،
المغارة سماء والأرض عرشاً شيروبيميّاً
والمذود محلا شريفاً،
الذي اتّكأ فيه المسيح الإله،
غير الموسوع في مكان،
فلنسبّحه معظّمين»[(١)].

يتبع قانون الميلاد ذو الأوديات التسع التراتيل الكتابيّة (canticles) لموسى وحبقوق وأشعياء ويونان والفتية الثلاثة، نشيد تعظيم العذراء. وقد وضعه القدّيس غريغوريوس النزينزيّ، وهو المعروف باللاهوتيّ، في القرن الرابع. كان القدّيس غريغوريوس صديقاً للقدّيس باسيليوس الكبير، ومدافعاً، بامتياز، عن ألوهيّة ابن الله وكلمته، وتالياً عن عقيدة الثالوث القدّوس. لا يُكرَّم القدّيس غريغوريوس فقط لأنّه لاهوتيّ عظيم وشاعر روحانيّ، إنّما لأنّه مبشّر ومعلّم عظيم للحياة المسيحيّة أيضاً. في ما يلي مقاطع من عظته التي ألقاها في ترانيم الميلاد في الاحتفال بفصح الشتاء:

«المسيح وُلد فمجّدوه. المسيح أتى من السماوات فاستقبلوه. المسيح على الأرض فارفعوه. رتّلي للربّ أيّتها الأرض كلّها». سأربط الاثنتين بكلمة واحدة: فلتفرح السموات، وتبتهج الأرض لأنّ الذي هو في السموات نزل الآن إلى الأرض. المسيح بالجسد فافرحوا برعدة وابتهاج. افرحوا برعدة بسبب خطاياكم. وبابتهاج بسبب رجائكم. المسيح ولد من

(١) خدمتا سَحَر عيدي دخول السيدّة والميلاد

عذراء، فعيشوا كعذارى. أيّتها الأمّهات كنّ أمّهات المسيح. من لا يسجد للذي هو منذ البدء؟ من لا يمجّد الذي هو النهاية أيضاً؟

لقد مضى الظلام ثانية. وخُلق النور ثانية.... فليرَ الجالسون في الظلام ملء نور المعرفة العظيم. فقد مضت الأشياء القديمة. انظروا فقد أصبحت كلّ الأشياء جديدة. ذهب الحرف واحتلّ الروح مكانه. وطُردت الظلال لأنّ الحقّ قد أتى عليها. ملكيصادق يتحقّق الآن. فالذي هو بدون أمّ (لأنّه مولود من الآب قبل الدهور) يصير الآن بدون أب (لأنّه مولود من عذراء). طبيعة الناموس غاضبة. فالعالم العلويّ يجب أن يملأ كلّ شيء. المسيح يوصي فلا ندَع أنفسنا تعانده.

صفّقوا بالأيدي أيّها البشر. لأنّه ولد لنا الابن، وأُعطي لنا ولد، ورئاسته على كتفيه... فليصرخ يوحنّا المعمدان عالياً: أعدّوا طريق الربّ! وأنا سأصرخ عالياً أيضاً عن قوّة هذا اليوم. فالذي هو بغير جسد يتجسّد. ابن الله يصير ابن الإنسان. يسوع المسيح: هو نفسه أمس واليوم وإلى الأبد! فليخزَ أولاد إسرائيل الذين يطلبون الآيات. فليتحدّث بحماقة اليونانيّون الذين يطلبون الحكمة[1]. فليتكلّم الهراطقة حتّى يؤلمهم لسانهم. فسوف يؤمنون عندما يرونه صاعداً إلى السماء. وإن لم يؤمنوا ساعتها فسوف يؤمنون عندما يرونه آتياً من السموات ليُجري الدينونة.

لكن هذا ليس الآن. فلنتكلّم الآن على الاحتفال الذي ندعوه الميلاد والظهور. فالاسمان كلاهما يعودان إلى الأمر ذاته. لأنّ الله ظهر إنساناً في الميلاد. إنّه هو الكائن الأبديّ من الكائن الأبديّ (إله من إله)، فوق كلّ سبب وكلمة، لأنّ كلمة الله قبل أيّة كلمة. وفي الوقت ذاته هو الآتي من أجل خلاصنا، لكي يعطينا كياننا، كياننا السليم، أو بالأحرى يستعيدنا

---

(١) أنظر ١ كو١: ٢٢-٢٣.

بتجسّده بعدما سقطنا ببؤسنا من كياننا السليم. اسم الظهور الإلهيّ يُعطى للعيد بالإشارة إلى ظهوره الإلهيّ في المعموديّة. واسم الميلاد بالإشارة إلى ولادته بالجسد.

إذاً هذا هو احتفالنا الحاضر. إنّنا نحتفل اليوم: بمجيء الله إلى الإنسان، لتصير الصدارة لنا، أو بالأحرى (وهو التعبير الأفضل) لنعود إلى الله - بنزعنا الإنسان العتيق ولبسنا الإنسان الجديد. وكما أنّنا متنا بآدم هكذا نحيا بالمسيح، نولد مع المسيح ونُصلب معه ونُدفن معه ونقوم معه....

لذا فلنحفظ العيد لا كما يحتفل الوثنيّون، بل بطريقة إلهيّة. لا بطريقة هذا العالم، بل على مثال العالم الذي من فوق. لا كشيء يخصّنا نحن، بل كشيء يخصّه هو (المسيح) الذي هو نحن، أو بالأحرى كمعلّمنا. لا بضعف، بل بشفاء. لا كخليقة، بل كخليقة مستعادة (جديدة).

وكيف يكون هذا؟ لا نزيّنّ مداخل بيوتنا، ولا نقم حلقات الرقص، ولا نجمّل الشوارع. لا نعيّدنّ بالعيون، ولا نطربنّ آذاننا بالموسيقى، ولا نعطرنّ أنوفنا بالعطور، ولا ندنسنّ الذوق، ولا نلذذنّ الملمس. هذه هي الطرائق التي تقود إلى الشيطان ومداخل الخطيئة... فلنترك هذه جميعها للوثنيّين... أمّا نحن العابدون كلمة الله، فيجب أن نترفّه بطرائق أخرى. فلنطلب كلمة الله في الناموس والقصص الكتابيّة، وبخاصّة تلك التي تخبرنا عن العيد الحاضر. وهكذا تكون أفراحنا على شبهه (المسيح) الذي دعانا كلّنا اليوم.

... لأنّ الذي يوزّع الغنى صار فقيراً، لأنّه لبس فقري الجسديّ لكي ألبس غنى ألوهيّته. هو الملء أفرغ ذاته، أفرغ ذاته من مجده، لفترة قصيرة، لكي أشارك أنا في ملئه. كم هو غنى صلاحه ! ما هذا السرّ الذي حولي! كنت مشاركاً في الصورة الإلهيّة لكنّي لم أحفظ هذه

الشركة. فهو يتّخذ جسدي الآن لينقذ الصورة ويجعل الجسد غير مائت. إنّه يشارك مناولة ثانية [التجسّد] أعجب من الأولى [الخلق]. لأنّه في الخلق أعطانا أن نشارك في طبيعته الصالحة. والآن في الميلاد لبس هو طبيعتنا الخاطئة. الميلاد أكثر من فعل إلهيّ. إنّه يفوق عيون فهم كلّ البشر»[1].

❖

---

(١) غريغوريوس النيصصيّ، العظة ٣٨، في الظهور أو ميلاد المسيح.

٦

عيد القدّيس أندراوس

يرتّل قانون الميلاد اعتباراً من عيد دخول السيّدة إلى الهيكل، كما أسلفنا، أمّا الترانيم السابقة للميلاد فتُرتّل لأوّل مرّة ابتداءً من عيد القدّيس أندراوس «الرسول الكلّيّ المديح والمدعو أوّلاً»[١].

نقرأ في إنجيل يوحنّا، أنّ فيلبس يدعو صديقه نثنائيل لـ «يأتي ويرى» يسوع، بينما يسوع نفسه يدعو أندراوس وتلميذاً آخر ليوحنّا المعمدان، هو يوحنّا الإنجيليّ نفسه على الأغلب، «ليأتيا ويريا» أين يمكث الربّ وليمكثا معه اليوم كلّه.

«وفي الغد كان يوحنّا واقفاً هو واثنان من تلاميذه. فنظر إلى يسوع ماشياً، فقال: هوذا حَمَل الله». فسمعه التلميذان يتكلّم، فتبعا يسوع. فالتفت يسوع ونظرهما يتبعان، فقال لهما: «ماذا تطلبان؟». فقالا: «ربّي» الذي تفسيره: يا معلّم. «أين تمكث؟». فقال لهما: «تعاليا وانظرا». فأتيا ونظرا أين كان يمكث، ومكثا عنده ذلك اليوم. وكان نحو الساعة العاشرة. كان أندراوس أخو سمعان بطرس واحداً من الاثنين اللذين سمعا يوحنّا وتبعاه. هذا وجد أوّلاً أخاه سمعان، فقال له: «قد وجدنا مسيّاً الذي تفسيره المسيح». (يو ١: ٣٥-٤١)

«تعال وانظر»: إنّه نداء أساس في خدم الكنيسة الليتورجيّة. تعال بإيمان فتنضمّ إلى عداد الذين لهم «قد أُعطي أن يعرفوا أسرار ملكوت السموات» (مت ١٣: ١١). ستكون مع الذين مُنحوا معرفة «سرّ المسيح»

(١) عيد القدّيس أندراوس، ٣٠ تشرين الثاني.

الذي هو «السرّ المكتوم منذ الدهور في الله خالق الجميع»، حتّى عن الملائكة. الذي ظهر الآن «بواسطة الكنيسة» (أف٣: ٤، ٩-١٠)[1].

تعال وانظر: ستشهد سرّ ولادة المسيح من البتول، وظهوره في الأردن في معموديّته على يد يوحنّا، وانتصاره على الشرير في البرّيّة، وإعلانه البشارة السعيدة للفقراء، وتبشيره المظلومين بالحرّيّة، وتصريحه بسنة مقبولة للربّ. سوف تشهد إتمامه الآيات المسيانيّة: العمي يبصرون والعرج يمشون والصمّ يسمعون والخرس يتكلّمون. سترى أنّ الريح تصمت والبحر يهدأ. ستشاهد الخبز ينتشر «في البرّيّة» ويُطعم الجموع الغفيرة (مز ٧٨: ١٩). ستشهد إقصاء الأرواح الشريرة. وسترى، ما هو أعظم بكثير، فالموتى يقومون بكلمة قوّته. ستعرف بالحقيقة أنّ «ملكوت الله قد أقبل عليكم» (مت١٢: ٢٨)، وستختبر حقّاً أنّ ما تراه «أعظم من يونان» و«أعظم من سليمان ههنا» (مت ١٢: ٤١-٤٢). سترى الذي «أنبياء وأبراراً كثيرين اشتهوا أن يروا... ولم يروا، وأن يسمعوا... ولم يسمعوا» (مت١٣: ١٧). سوف ترى ابن الله نفسه معلّقاً على الصليب لكي يعطي جسده المكسور غذاء لشعبه، ودمه المسكوب شراباً لشعبه، حتّى إنّ جوع الشعب وعطشه للسلام والفرح والبرّ، وبالحقيقة إلى الحياة ذاتها، سوف يُشبَع إلى الأبد. سوف «تتكئ مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السماوات» الذي جلبه المسيح الممجَّد إلى العالم (مت ٨: ١١).

السير في الطريق إلى فصح الشتاء، بحسب القدّيس غريغوريوس اللاهوتيّ، يعني «أن تسافر بدون خطأ في كلّ مرحلة وحقل من حياة المسيح». أن تدخل أسرار «الماسيّا» كلّها وبخاصّة أكملها: «كمالي

(١) أنظر أيضاً رو ١٦: ٢٥ ؛ ١ كو ٢: ٧ ؛ كول ١: ٢٦.

وعودتي إلى حالة آدم الأولى». أن «ترى الله العظيم المسجود له والممجَّد في ثالوث وأن تُرى منه»[1].

عيد القدّيس أندراوس، بإنشادِ الترانيم السابقة للميلاد، يعلن بدء الرحلة الفصحيّة الشتويّة بطريقة خاصّة.

«يا من هو صدى صوت السابق
إنّه عندما تجسّد الكلمة الكلّيّ القداسة مانحاً لنا الحياة
ومبشّراً الذين على الأرض بالخلاص
حينئذ تبعتَه يا كلّيّ الحكمة
وكرّست له ذاتك منذ البداءة
باكورةً كلّيّةً للتقديس
وإذ عرَفته، أخبرتَ به أخاك أنّه إله
فإليه ابتهل أن ينير ويخلّص نفوسنا».

«يا أشعياء تهلّل مسروراً
وتقبّل كلمة الله
وتنبأ عن الفتاة مريم
علّيقى ملتهبة بالنار، غير محترقة بشعاع اللاهوت
يا بيت لحم استعدّي. ويا عدن افتحي أبوابك
ويا أيّها المجوس سيروا، لتعاينوا الخلاص مدرَجاً بالأقمطة
الذي أخبر به كوكبٌ فوق المغارة
أنّه الربّ مانح الحياة ومخلّص جنسنا».

«قل لنا يا يوسف
كيف الفتاة استلمتها من الأقداس

(١) غريغوريوس النزينزيّ، العظة ٣٨، في الظهور أو ميلاد المسيح.

تأتي بها حُبلى إلى بيت لحم
فقال إنّني إذ فتّشت أقوال الأنبياء
وأُوحي إليّ من الملاك
أثق أنّ مريم ستلد إلهاً بحال لا تفسّر
الذي سيأتي مجوس من المشارق ليسجدوا له
خادمين إيّاه بالهدايا الكريمة
فيا من تجسّدت لأجلنا يا ربّ المجد لك[1]».

❖

---

(١) خدمة غروب عيد القدّيس أندراوس. تدعى العذراء مريم في التراتيل الليتورجيّة الأرثوذكسيّة «العلّيقى المشتعلة». لأنّ العلّيقى التي شهدها موسى كانت تشتعل، لكنّها لم تحترق. هكذا العذراء مريم حبلت في بطنها بابن اللّه وكلمته، وكإنسان لم تفنها نار ألوهيّته. انظر سفر الخروج، الفصل ٣.

٧

رؤية الذين لا يرون

إذا لم نأتِ لن نرى أبداً. لكن المجيء وحده ليس كافياً. يجب أن نرى أيضاً.

كثيرون كانوا أيّام أتى يسوع إلى الأرض، ولم يروا فيه ابن الله ومخلّص العالم. وكثيرون الذين يأتون إلى الكنيسة ويبقون غير مبصرين. ويسمعون الكلمات مثل الذين تكلّم عليهم يسوع عندما كلّمهم في الأمثال، قائلاً: «*مبصرين لا يبصرون، وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون*» (مت١٣: ١٣).

وإذا سألنا: «لماذا يأتي البعض ويظلّ غير مبصر؟». المسيح يعطينا الجواب، مستشهداً بالنبيّ إشعياء، وقائلاً إنّها، ببساطة، قضيّة مشيئة. أولئك الذين لا يرون يظلّون عمياناً لأنّهم لا يريدون أن يبصروا.

فقد تمّت فيهم نبوءة إشعياء القائلة: «تسمعون سمعاً ولا تفهمون، ومبصرين تبصرون ولا تنظرون. لأنّ قلب هذا الشعب قد غلُظ، وآذانهم قد ثقُل سماعها. وغمّضوا عيونهم، لئلا يبصروا بعيونهم، ويسمعوا بآذانهم، ويفهموا بقلوبهم، ويرجعوا فأشفيهم» (مت ١٣: ١٤-١٥؛ إش ٦: ٩-١٠).

يشير الرسول بولس إلى كلمات النبي إشعياء هذه، عندما يتأمّل وهو في بيت الأسر في روما، بفشل شعب الله بقبول يسوع على أنّه المسيح (ماسيّا) الموعود.

«فعيّنوا له يوماً، فجاء كثيرون إلى المنزل. فطفق يشرح لهم شاهداً بملكوت الله، ومقنعاً إيّاهم من ناموس موسى والأنبياء بأمر يسوع،

من الصباح إلى المساء. فاقتنع بعضهم بما قيل، وبعضهم لم يؤمنوا. فانصرفوا وهم غير مقتنعين بعضهم مع بعض، لمّا قال بولس كلمة واحدة: إنّه حسناً كلّم الروح القدس آباءنا بإشعياء النبيّ قائلاً: اذهب إلى هذا الشعب وقل: ستسمعون سمعاً ولا تفهمون، وستنظرون نظراً ولا تبصرون. لأن قلب هذا الشعب قد غلُظ، وبآذانهم سمعوا سمعاً ثقيلاً، وأعينهم أغمضوها. لئلا يبصروا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم، ويرجعوا فأشفيهم» (أع ٢٨: ٢٣-٢٧).

يعلّمنا المسيح أيضاً لماذا لا يرغب الشعب، عموماً، في أن يرى. يقول إنّ السبب هو أنّهم أحبّوا الظلمة أكثر من النور لأنّ أعمالهم شريرة (أنظر يوحنا ٣: ١٩): النور يكشف الحقيقة. يجعل حقيقة الأشياء منظورة. الأشرار يهربون، هم يحتقرون النور. ويفضّلون عماهم والوهم الذي يخلقونه لأنفسهم عليه. إنّهم يرغبون بتجميل رؤيتهم الأمور. يرغبون، بالأخصّ، بتسوية صور لأنفسهم حسب رغباتهم. لا يريدون أن يروا أنفسهم كما هي بالحقيقة، بل كما يتمنّونها أن تكون.

وفوق هذا كلّه، يريدون الآخرين نسخة عنهم، تؤكّد آراءهم الشخصيّة. وبالأخصّ، يريدون صورة الله التي يستطيعون مسّها وتغييرها لتخدم غاياتهم الوهميّة والخدّاعة من أجل ربحهم ومتعهم الشخصيّة. لهذا فإنّ محبّي الظلمة هم أصلاً كذّابون ووثنيّون. يكذبون على أنفسهم وعلى الله. إنّهم يضعون آلهتهم الخاصّة ومن ثَمّ يكيّفون أنفسهم على صورة هذه الآلهة التي صنعوها ومثالها.

السؤال الموجَّه إلى كلّ منّا نحن الذين نشقّ طريقنا إلى فصح الشتاء، هو السؤال الذي وجّهه المسيح إلى الأعميين اللذين صرخا إليه طالبَين رحمته: «ماذا تريدان أن أفعل بكما» فأجاباه: «يا سيّد، أن تنفتح

أعيننا»، وفي رواية الإنجيل، «**تحنّن يسوع ولمس أعينهما، فللوقت أبصرت أعينهما فتبعاه**» (مت ٢٠: ٢٩-٣٤).

نحن أيضاً يجب أن نقول، يا سيّد، افتح أعين أذهاننا وقلوبنا، واجعلنا نرى. فإنّك أنت قلت إنّ الله أبوك، وقد أرسلك إلى العالم لتدين العالم. «**لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم. حتّى يبصر الذين لا يبصرون. ويعمى الذين يبصرون**» (يو٩: ٣٩).

«لأنّه هكذا أحبّ الله العالم حتّى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كلّ من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبديّة. لأنّه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلّص به العالم. الذي يؤمن به لا يُدان، والذي لا يؤمن قد دين، لأنّه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. وهذه هي الدينونة: إنّ النور قد جاء إلى العالم، وأحبّ الناس الظلمة أكثر من النور، ولا يأتي إلى النور لئلا توبّخ أعماله. وأما من يفعل الحقّ فيقبل إلى النور، لكي تظهر أعماله أنّها بالله معمولة». (يو٣: ١٦-٢١).

هذه هي كلمات يسوع.

«افرحي يا سماءً ناطقة
مذيعةً على الدوام مجد الله
يا من أطعت أوّلاً بحرارة دعوة المسيح
وللوقت صرت معه.
وبما أنّك استنرتَ منه
شوهدت نوراً ثانياً
وبإشراقاتك أنرت الذين في الظلام
مماثلاً له في الصلاح
فلذلك نقيم عيدك الكلّيّ القداسة

وبفرح نصافح جرن أعضائك
التي منها تُفيض خلاصاً للسائلين والرحمة العظمى».

«يا من تشكلّت بشكل السابق
إنّه عندما ظهر شعاع المجد الأبويّ ذي الأقنوم
مريداً أن يخلّص جنس البشر
حينئذ بادرت إليه أوّلاً أيّها المجيد
منيراً ذهنك بكمال شعاع لاهوته
فلذلك صرت كارزاً بالمسيح إلهنا ورسولاً له
فإليه ابتهل أن ينير ويخلّص نفوسنا»[١].

❖

(١) خدمة غروب القدّيس أندراوس. أنظر مت ٤ : ١٢؛ لإش ٩ : ١-٢ ؛ عب ١ : ٣؛ رؤ ٢ : ٢٢،٢٨ : ١٦.

٨

عيد القدّيس نيقولاوس

يسمع المؤمنون ترتيل ما قبل الميلاد مرّة ثانية في عيد القدّيس نيقولاوس، أسقف مدينة ميرا في القرن الرابع، الذي ارتبط اسمه، عبر العصور، بعيد ميلاد المسيح ارتباطاً خاصّاً.

«لنجتمع أيّها المحبّو الأعياد
ونمدح بالتقاريظ النشيديّة
جمال رؤساء الكهنة، وفخر الآباء، وينبوع العجائب
منجد المؤمنين العظيم قائلين:
إفرح يا حارس أهل ميرا وزعيمهم الموقر
والعمود غير المتزعزع
إفرح أيّها الكوكب الساطع الضياء، المنير أقطار العالم بالعجائب
إفرح يا سرور الحزانى الإلهيّ ونصير المظلومين الكلّيّ الحماسة
فالآن يا نيقولاوس الكلّي الغبطة
ما تزال متشفّعاً إلى المسيح الإله
من أجل الذين يكرّمون دائماً بإيمان وشوق
تذكارك المبهج الكلّيّ التعييد»

«أيّتها المغارة استعدّي
فإنّ النعجة تأتي حاملة المسيح جنيناً
أيّها المذود تقبّل مَن بكلمته نقض أفعالنا البهيميّة
نحن معاشر الأرضيّين

أيّها الرعاة اسهروا واشهدوا للعجب الرهيب
ويا أيّها المجوس الذين من فارس
قدّموا للملك ذهباً ولباناً ومرّاً
لأنّ الربّ قد ظهر من أمٍّ بتول
الذي قد انحنت له أمّه وسجدت له كأمة
وخاطبت الذي في أحضانها قائلة
كيف بُذِرت فيَّ
وكيف نبتَّ منّي يا إلهي ومنقذي»

«أيّتها البتول التي لا عروس لها
من أين أقبلتِ
مَن والدكِ ومَن أمّكِ
كيف تحملين الخالق على ساعديكِ
كيف لم يفسد حشاكِ
فيا كلّيّة النقاوة
إنّنا نشاهد فيكِ غرائب عظيمة
وأسراراً رهيبة تامّة على الأرض
فنسبق ونهيّئ لكِ ما يليق
فمن الأرض المغارة
ونستمدّ من السماء أن تجود بالكوكب
والمجوس يأتون من مشارق الأرض إلى مغاربها
ليعاينوا خلاص الآنام رضيعاً كطفلٍ»[١].

من المحزن أن يتحوّل عيد القدّيس نيقولاوس إلى «بابا نويل» ذي البزّة الحمراء في «عطلة» شتاء عالميّة. ومن السهل أن نفهم لماذا ارتبط هذا

(١) خدمة غروب عيد القدّيس نيقولاوس.

الأسقف القدّيس ارتباطاً وثيقاً باحتفال عيد ميلاد المسيح. فالقصص التي نُسجت وحيكت في مخيّلة المسيحيّين عبر القرون، في أوقات وأماكن مختلفة، تحكي كلّها الإيمان البسيط والمحبّة المعطاءة اللتين عُرف بهما القدّيس نيقولاوس وتميّز بأعماله الخيّرة ومحبّته للناس.

الأكثر غرابة، في مثال القدّيس نيقولاوس، هو أنّه لم يشتهر بكتاباته ولاهوته فهو لم يكن لاهوتيّاً وما كتب كلمة واحدة، ومع ذلك انطبعت صورته في ذاكرة المؤمنين كمدافع عن الإيمان الأرثوذكسيّ. فقد حكت سيرته عن مواجهته هرطقة آريوس في المجمع المسكونيّ الأوّل في نيقية (أنكر آريوس الكاهن الإسكندريّ ألوهيّة ابن الله). ولم يكن هذا القدّيس ناسكاً، وما عمل موائد صيام أو سهرانيّات، ومع ذلك يُمدَح لامتلاكه «**ثمار الروح القدس... المحبّة والفرح والسلام وطول الأناة واللطف والصلاح والإيمان والوداعة والتعفّف**» (غلا ٥: ٢٢-٢٣). ولم يكن صوفيّاً بحسب المعنى المعاصر لهذا المصطلح، لكنّه عاش مع الربّ يوميّاً، وكانت كلماته وأفعاله بحسب الله. ولم يكن نبيّاً بالمعنى التقنيّ للنبوّة، مع أنّه بشّر بكلمة الله، ووبّخ خطايا الضعفاء، ودافع عن حقوق المظلومين والمتألّمين، وحارب كلّ شكل للظلم، بحنان ورحمة فائقين. وبإيجاز، كان راعياً صالحاً، وأسقفاً لشعبه، مشهوراً بشكل خاصّ، بمحبّته وعنايته بالفقراء. وببساطة، كان إنساناً صالحاً متألّهاً.

نحن، في عصرنا هذا، نستعمل مصطلح «الصلاح» بخفّة. كم سهل علينا القول إنّ فلاناً «رجل صالح» أو فلانة «امرأة صالحة». كم نقول بخفّة «إنّهم قوم صالحون». فتاة، في مقتبل العمر، تأخذ جرعة مخدّرات زائدة، يقول جيرانها للصحفيّين «لكنّها كانت دائماً فتاة صالحة» و«والداها رائعان»(١). يرتكب شاب ما جريمة مرعبة، فنسمع

---

(١) يستخدم الكاتب هنا عبارة good الإنكليزيّة. وما يوازيها، في هذا السياق المستعمل، في لغتنا العربيّة: كويّس أو آدمي. (المترجم)

الكلام المنمّق عينه: «لكنّه كان يسلك دائماً كولد صالح، وعائلته رائعة جدّاً». يموت إنسان بعد حياة موسومة بسنوات من ممارسة القمار والسكر، ويكون ردّ الفعل ذاته: «كان إنساناً صالحاً، ورجلاً رائعاً». ماذا تعني بالضبط كلمتا «صالح» و«رائع» في حالات كهذه؟ ماذا نصف؟ عمّ نعبّر؟

يخبرنا إنجيل لوقا عن شاب أتى إلى المسيح يسأله: «**أيّها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبديّة؟**». فيجيبه المسيح: «**لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلاّ واحد وهو الله**» (لو ١٨: ١٨). انظر أيضاً (مر ١٠: ١٨ ومت ١٩: ١٧). يجيب يسوع بأسلوب لينّ، وربّما يشوبه استهزاء، عن كلمة «صالح» بإعادتها إلى مصدرها الصحيح. هناك صالح واحد فقط وهو الله نفسه. فإذا أردت أن تتكلّم على الصلاح، يجب أن تكون متأكداً على من تتكلّم وعمّ.

كان القدّيس نيقولاوس صالحاً حقّاً، على مثال الله وعلى مثال المسيح، فالصلاح الحقيقيّ ممكن. ولنستشهد مرّة ثانية بكلام الربّ «**هذا عند الناس غير مستطاع، ولكن عند الله كلّ شيء مستطاع**» (مت ١٩: ٢٦).

فالكائن الإنسانيّ وإن كان غنيّاً، يستطيع إن كان مؤمناً بالله أن يصير صالحاً حقاً بصلاح الله ذاته. يقول الربّ: «**الحقّ أقول لكم: لو كان لكم إيمان مثل حبّة خردل... لا يكون شيء غير ممكن لديكم**» (مت ١٧: ٢٠).

أتى المسيح ليمكّن، الجنس البشريّ من العيش عيشة، هي مستحيلة، إذا اعتمدنا فيها على القوى البشريّة فقط من دون الله. أتى المسيح ليستطيع الناس أن يصيروا صالحين حقّاً. أحد الأمثلة الأكثر شعبيّة ومحبوبيّة عند المؤمنين هو أسقف ميرا، القدّيس الذي لا نعرف عنه شيئاً آخر، سوى أنّه كان صالحاً. لهذا السبب وحده يظلّ، حتّى في شكله العلمانيّ (بابا نويل) روح الميلاد الحقيقيّة.

«أيّها الأب نيقولاوس رئيس الكهنة البارّ
إنّ ثمر فضائل شجاعتك
قد أبهج قلوب المؤمنين
لأنّه من ذا الذي سمع بتواضعك الذي لا يُحَدّ
ولم يتعجّب من صبرك وبشاشتك بالمساكين
وإشفاقك على الحزانى
لأنّك قد علّمت الجميع على أسلوب إلهيّ
فالآن بما أنّك كُلّلت بالإكليل الذي لا يذبل
تشفّع من أجل نفوسنا»[1].

«لقد أظهرتك أفعال الحقّ لرعيّتك
قانوناً للإيمان
وصورة للوداعة
ومعلّماً للإمساك
أيّها الأب رئيس الكهنة نيقولاوس
فلذلك أحرزت بالتواضع الرفعة
وبالمسكنة الغنى
فتشفّع إلى المسيح الإله أن يخلّص نفوسنا»[2].

❖

(١) خدمة غروب عيد القدّيس نيقولاوس

(٢) طروباريّة عيد القدّيس نيقولاوس، وقد أصبحت في الليتورجيا الأرثوذكسيّة «طروباريّة عامّة» لكلّ القدّيسين الأساقفة، وهي تكشف ما يجب أن يكون عليه الراعي المسيحيّ بحسب «ذهن الكنيسة».

٩

الحبل بمريم

تحتفل الكنيسة الأرثوذكسيّة، في التاسع من شهر كانون الأوّل، بعيد حبل القدّيسة حنّة بوالدة الإله مريم[1]. وهو يقع في فترة التهيئة للميلاد المجيد، فيكون سبب بهجة للمؤمنين. لأنّ حَدَث الحبل بمريم هو تحقيق لصلوات والديها لكي يُرزقا بولد. تصوّرت مريم في البطن، ووُلدت على الأرض، وتكرّست للربّ، وتربّت في الهيكل، لتصبح، بنعمة الله، أمّاً لابن الله، المسيح.

بالإضافة إلى تراتيل خدمة هذا العيد، هناك أيقونات ولوحات فسيفسائيّة يكرّمها المؤمنون ويقبّلونها، وتصوّر الزوجين يواكيم وحنّة في حالة عناق في غرفة الزوجيّة.

«يا آدم ويا حوّاء؟ اطرحا عنكما كلّ حزن
لأنّ أمّ الفرح، تثمرها اليوم العاقر
بحال مستغرَبَة»

«أيّها الجدّ إبراهيم، ويا جميع رؤساء الآباء
ابتهجوا لمشاهدتكم أمّ الإله. نابتةً من أصلكم»

---

(١) يدعى العيد رسميّاً الحبل بوالدة الإله. ويحتفل به في التاسع من كانون الأوّل. هناك تقليد شعبيّ بين الأرثوذكس يقول إنّ فترة الشهر التاسع تنقص يوماً واحداً لتوضيح «إنسانيّة مريم المجرّدة»، على خلاف «بشريّة ابنها المؤلّهة»، الذي تحتفل الكنيسة بالحبل به في عيد البشارة، الذي يقع في الخامس والعشرين من شهر آذار، تسعة أشهر تماماً قبل ميلاده.

«إفرح يا يواكيم. وابتهجي يا حنّة
لأنّكما تثمران اليوم
علّة الفرح والخلاص للعالم»

«يا مصفّ الأنبياء ابتهجوا
لأنّ ها حنّة تثمر الثمرة
التي بها نبوءاتكم تتمّ»

«إفرحوا معاً يا جميع القبائل
مع حنّة العاقر
لأنّها أنبتت ثمر بطنها على غير أمل
أعني بها علّة حياتنا»

«يا أقطار الأرض ابتهجي
لأنّ أمّ خالق الكلّ
تنبت اليوم من بطن عادم الثمر»

«اليوم كمن أصل داود
قد تفرّعت برفيرة ملوكيّة
وأخذت تنبت زهرة يسّى السرّيّة
التي منها أزهر المسيح إلهنا المخلّص نفوسنا»[١].

لا تسمّي الكنيسة الأرثوذكسيّة، خصوصاً في زمننا الحاضر، هذا العيد «الحبل بلا دنَس»، مع أنّه استُعمل في الماضي[٢]. لا لأنّ

(١) خدمة سَحَر عيد الحبَل بوالدة الإله.

(٢) تحتفل الكنيسة الكاثوليكيّة بعيد الحبل بمريم بلا دنس في الثامن من شهر كانون الأوّل. اعتبرت الكنيسة الكاثوليكيّة «الحبل بلا دنس» عقيدة رسميّة. وتقول هذه العقيدة بأنّ الله منح مريم «استحقاقات المسيح» لحظة حبلها فصارت حرّة من «لطخة» الخطيئة الأصليّة وتالياً صارت أمّ المخلّص، ابن الله وكلمته المتجسّد، الأكثر طهراً. بعض مدارس اللاهوت تعلم أنّ الجنس البشريّ مذنب بالخطيئة الأصليّة لأنّها موجودة مسبقاً «في آدم». والبعض يربط انتقالها إلى البشر بواسطة الحبل الذي يتّم بواسطة الاتحاد الجنسيّ.

الكنيسة الأرثوذكسيّة تعتبر الحبل بمريم قد تمّ بدنس. بل لأنّها لا تريد أن تدعم الاعتقاد بأنّ الله تدخّل، بشكل ما، لحظة الحبل بمريم وقام بفعل خاصّ ليمحو «دنس» الخطيئة الأصليّة، المنتقلة بواسطة تناسل الجنس البشريّ. لأنّ الكنيسة الأرثوذكسيّة لا تؤمن بأنّ دنساً كهذا موجود أصلاً.

تشهد الكنيسة الأرثوذكسيّة بحقيقة الخطيئة الأصليّة. كما يعلّم اللاهوت الأرثوذكسيّ أنّ كلّ البشر، بمن فيهم العذراء مريم، التي هي «مجرّد إنسان» مثل البشر الآخرين، وُلدوا في عالم ساقط، قابل للموت، مسكون بالأرواح الشريرة، و«هيئته إلى زوال» (١ كو ٧: ٣١). طبعاً، يشذّ عن هذه القاعدة يسوع الذي هو «إنسان حقّاً»، لكنّه ليس «مجرّد إنسان» بل ابن الله وكلمته المتجسّد. كلّنا مولود قابل للموت وميّال إلى الخطيئة. لكنّنا لم نولد مذنبين بأيّة خطيئة شخصيّة، وبالتحديد لا بالخطيئة المنسوب ارتكابها إلى آدم. لم نُولد دنسين بسبب الطريقة التي يتمّ الحبل بنا بواسطتها، أي الاتحاد الجنسيّ بين الوالدين. فإذا كان الاتحاد الجنسيّ في الزواج هو خطيئة بأيّ معنى كان، أو سبب أيّ خطيئة أو دنس، حتّى في حالة «العالم الساقط»، فإنّ الله، حسب ما يعلّم القدّيس المتشدّد يوحنّا الذهبيّ الفم، يكون خاطئاً، لأنّه خلقنا بهذه الطريقة، ذكراً وأنثى، منذ البدء[١].

تعلّم الكنيسة الأرثوذكسية أنّه بنعمة الله، مع كلّ الأشياء الممكنة، من الممكن للاتحاد الجنسيّ في الزواج، حتّى في حالة الأشياء الحاضرة، أن يكون صالحاً ومقدّساً وجميلاً ومحبّاً وطاهراً. والبرهان على هذا هو عيد حبَل حنّة بمريم، (مثال آخر هو حبل أليصابات وزخريّا بيوحنّا

---

(١) أنظر القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، في تيطس، العظة ٢.

المعمدان)، من دون أيّ ذكر لأيّ نوع «دنس» زال بسبب عمل أو تدخّل إلهيّ خاص"[1].

حُبل بمريم، بشكل طبيعيّ، كما حُبل بنا جميعاً. لكن، في حالتها كان الحبل فعل إيمان ومحبّة طاهرين، في طاعة لمشيئة الله، واستجابة لصلواتهما. بهذا المعنى الحبَل بها طاهر ونقيّ و«بلا دنس». وثمرته هي المرأة التي بقيت على الدوام العذراء الأكثر طهراً وأمّ الله.

«هلمّوا لنؤلّف اليوم مصفّاً روحيّاً
وإذ نسبّح المسيح نقدّم بشوق هدايا لتقدمة العيد
تسبيحاً مقبولاً لوالدة الإله
التي هي افتخار جنسنا
محتفلين بالحَبَل الإلهيّ بها على غير أمل»[2]

«إنّ حنّة العفيفة إذ كانت قديماً تصلّي بإيمانٍ مبتهلةً إلى الله
سمعت صوت الملاك مؤكّداً لها استجابة الإله طلباتها
لأنّ غير المتجسّد خاطبها علانيةً قائلاً:
إنّ طلبتكِ دنت من الربّ فلا تكتئبي بل كفّي الدموع
لأنّكِ ستصيرين زيتونةً حسنة الثمر
مفرعةً غصناً جميلاً. أعني به البتول التي ستزهر الزهرة
المسيح بالجسد، مانحاً العالم الرحمة العظمى»[3].

❖

---

(١) تحتفل الكنيسة الأرثوذكسيّة بعيد الحبل بالقدّيس يوحنّا المعمدان، سابق المسيح، في ٢٥ أيلول. وبعيد ميلاده في ٢٤ حزيران؛ ومرّة ثانية تقص شهور الحبل به التسعة يوماً واحداً. (انظر الحاشية رقم ١). ظهرت حركة في الكنيسة الكاثوليكيّة في بدء القرن العشرين تطالب الكنيسة بالقول بـ «الحبل بلا دنس» بيوحنّا المعمدان، لكن النجاح لم يحالفها.

(٢) ترنيمة سابقة من خدمة غروب ٨ كانون الأوّل، اليوم السابق لعيد الحبل بوالدة الإله.

(٣) خدمة غروب عيد الحبل بوالدة الإله.

١٠
عيد القدّيس هرمان

انتقل الشيخ هرمان آلاسكا، الراهب المبشّر من جزيرة Spruce قرب كودياك، إلى رحمة الله في الثالث عشر من كانون الأوّل من العام ١٨٣٧. إنّه القدّيس الأرثوذكسيّ الأوّل الذي أُعلنت قداسته في أميركا[١]. ويتوسط عيده، اليوم، احتفالات الميلاد الليتورجيّة عند المسيحيّين الأرثوذكسيّين القاطنين في أميركا الشمالية.

«أيّها النجم الشماليّ المبهج كنيسة المسيح
القائد كلّ الناس إلى الملكوت السماويّ
أيّها الرسول معلّم الإيمان المستقيم
الشفيع والمدافع عن المظلومين
زينة الكنيسة الأرثوذكسيّة في أميركا
أيّها الأب المغبوط من آلاسكا
صلِّ إلى ربّنا يسوع المسيح من أجل خلاص نفوسنا»[٢].

الذين يؤمنون بأعمال الربّ في التاريخ، الذين سمعوا بعبور شعبه قديماً من مصر، الذين صدمتهم كلمة الله على فم أنبيائه، الذين آمنوا بإنجيل ملكوت ابنه يسوع، لا يستغربون ولا يتفاجأون بحقيقة كون القدّيس هرمان القدّيس الأوّل الذي تمجّد في كنيسة المسيح في أميركا. الربّ ألذي وُلد ابنه الوحيد، على الأرض، من امرأة متواضعة الأصل ووُضع في مذود، وسُمِّر على الصليب مع لصّين خارج أسوار المدينة

---

(١) أُعلنت قداسة القدّيس هرمان رسميّاً في التاسع من شهر آب من العام ١٩٧٠. ويعتبر هذا التاريخ عيداً ثانياً له أيضاً

(٢) طروباريّة القدّيس،

المقدّسة، وأظهر قيامته أوّلاً لامرأة كانت زانية وأخرج منها سبعة شياطين، ومن ثمّ بشّر رسوله العظيم بإنجيله بعد أن كان مشاركاً في قتل استفانوس الشهيد الأوّل، هذا الربّ نفسه قد أقام شخصاً كالقدّيس هرمان أوّلاً بين قدّيسي كنيسته في العالم الجديد.

كان القدّيس هرمان ناسكاً في دير فالامو في فنلندا الروسيّة، فاختير ليكون عضواً في البعثة التبشيريّة الأولى المرسَلة إلى آلاسكا، التابعة آنذاك إلى روسيا. لم يأخذ درجة كهنوتيّة، ولم يكن مثقّفاً. ولم يمتلك مهارات مميّزة. إنّما نعمته الوحيدة تكمن في أنّه رجل قدّيس، رجل إيمان وصلاة دائمة حقّاً.

وصل هرمان إلى أميركا مع البعثة التبشيريّة الأولى، وعاش وحده سنوات عديدة كراهب بسيط في جزيرة Spruce، علّم الناس الإنجيل وكان حاضراً في احتياجاتهم المادّيّة والروحيّة. دافع عنهم ضدّ التجّار الروس الجشعين، وتوسّل من أجلهم أمام العرش الأمبراطوريّ. ضربه أبناء شعبه واضطهدوه لأنّه كان يدينهم على ظلمهم وخطاياهم. وحّد نفسه تماماً مع المتألّمين والمظلومين، ومات منسيّاً، ومجّدته الكنيسة الناشئة بفضل جهوده المتواضعة ومن موجات المهاجرين الذين قصدوا القارة الأميركيّة، بعد زمن طويل من رقاده. أظهر نفسه من السماء لأولئك الذين، مثله، ظلّوا مؤمنين بالله، ومنهم الكاهن الأرمل والأسقف المبشّر العظيم، و«رسول أميركا» القدّيس إينوسنت فينيامينوف[1].

---

(١) كان القدّيس إينوسنت كاهناً متزوجاً. ذهب إلى آلاسكا في بعثة تبشيريّة في العام ١٨٢٤. رُسم راهباً بعد وفاة زوجته باسم إينوسنت ومن ثمّ صارأسقفاً. رقد في العام ١٨٧٩ بعد أن أصبح ميتروبوليت موسكو، أي رأس الكنيسة الروسيّة الأرثوذكسيّة. أُعلنت قداسته رسميّاً في السادس من شهر تشرين الأوّل من العام ١٩٧٧، ويعتبر هذا التاريخ مع تاريخ رقاده في الحادي والثلاثين من شهر آذار، عيداً سنوياً.

يحتاج المسيحيّون الأميركيّون بلا شكّ إلى شهادة القدّيس هرمان. لأنّ طريقة الحياة الأميركيّة متعارضة جذريّاً، في وجوه عدّة، مع نمط حياة هذا القدّيس، ومع أسلوب حياة يسوع الذي خدمه هرمان. عند الأميركيّين قيم أهمّ يبنون عليها حياتهم كالقوّة وحبّ الامتلاك، والربح، ومتع الدنيا، هذه هي القيم التي يتلقّنها الأولاد في المدارس فينتهي بهم الأمر إلى التكبّر والتعجرف. وبحزن أكبر نقول، إنّها القيم التي تعلّم الكثيرون منّا تقدير أهمّيّتها من طريق «رؤسائنا الدينيّين» سواء بكلامهم أو بمثالهم. لكنّها ليست بالتأكيد طريقة الربّ يسوع المسيح، ولا طريقة قدّيسيه أيضاً.

«لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء، حيث لا يفسد سوس ولا صدأ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون.. لأنّه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً.. لا يقدر أحد أن يخدم سيّدين. لأنّه إمّا أن يبغض الواحد ويحبّ الاخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الاخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال..فلا تهتمّوا قائلين: ماذا نأكل؟ أو ماذا نشرب؟ أو ماذا نلبس؟ فإنّ هذه كلّها تطلبها الأمم. لأنّ أباكم السماويّ يعلم أنّكم تحتاجون إلى هذه كلّها. لكن اطلبوا أوّلاً ملكوت الله وبرّه، وهذه تُزاد لكم». (متّ٦: ١٩-٢١؛ ٢٤-٢٥؛ ٣١-٣٣).

يُعتَبَر القدّيس هرمان، على غرار الربّ يسوع نفسه، بحسب المقاييس الأميركيّة، بائساً وفاشلاً. لم يحقّق شهرة لنفسه، لم يكن منظوراً في أعين الجماهير ولم يستخدم القوّة. ولم يمتلك شيئاً أو بالأحرى امتلك أشياء قليلة جداً ولم يعرف عزّاً أو جاهاً عالميّاً. ولم يؤدّ دوراً بارزاً في حقل الخدمات الخيريّة. ولم يشارك في ملذّات جسديّة. وما اقتنى مالاً.

ومات بهدوء بين شعب قليل العدد يسكن أكثر المناطق انعزالاً وبعداً. ومع ذلك، وبعد أكثر من مئة سنة على رقاده، تكرّم آلاف الكنائس اليوم أيقونته. ويبجّل اسمه ملايين الناس، أولئك الذين ما يزال يعلّمهم أن يطلبوا ملكوت الله وبرّه، هذا الملكوت الذي أتى إلى العالم بالملك الذي وُلد في مغارة ومات مصلوباً على الصليب. مثال هذا الإنسان مميّز جداً إذا تأمّلناه على ضوء احتفالات الاستعداد لميلاد المسيح، بخاصّة في أميركا.

«الكنيسة الأرثوذكسيّة في أميركا
تدعو الجميع للمشاركة في مدح أعمالك العجيبة
أيّها الأب المغبوط هرمان
فقد حصلت على الراحة من أتعابك المقدّسة في الدارة السماويّة
وملأتنا تعجّباً من مثال حياتك
فتشفّع بنا أمام المسيح الإله
ليمنح السلام لنفوسنا».

«لقد أعطيت حياتك بالكامل لله
وأحببته فوق كلّ شيء
ورغبت في حديث السموات فقط
ولم توفّر محبّة إخوتك أيّها القدّيس
مصلّياً ومرتّلاً معهم:
يا يسوع الحلو، امنحنا الخلاص من خطايانا»[1].

«أيّها الأب المغبوط هرمان آلاسكا
نجم الكنيسة المقدّسة الشماليّ
إنّ نور حياتك المقدّسة وأعمالك العظيمة

---

(١) خدمة سَحَر عيد القدّيس هرمان

ترشد الذين يتبعون الطريق الأرثوذكسيّ
فسويّةً نرفع الصليب المقدّس
الذي زرعته في أميركا
ليرى الجميع يسوع المسيح ويمجّدوه
مرتّلين لقيامته المقدّسة»[1].

❖

(١) طروباريّة ثانية للقدّيس هرمان

١١

فصح شتاء

شغل الأب ألكسندر شميمن منصب عميد معهد القدّيس فلاديمير اللاهوتيّ في كريستوود من أعمال نيويورك، وكان أباً روحيّاً، ومعلّماً وراعياً وصديقاً لعدد غير محدود من الناس، لا في أميركا وحدها، بل في كلّ العالم. رقد بالربّ في ١٣ كانون الأوّل، تاريخ رقاد القدّيس هرمان آلاسكا. وسوف يبقى يوم رقاده بالنسبة إلى الذين يعرفونه والذين سوف يتعرّفون إليه، يوماً قيّماً على درب الاحتفال بموسم الميلاد المجيد والظهور الإلهيّ.

نحت الأب ألكسندر عبارة «فصح الشتاء». فتيبيكون الكنيسة يتكلّم على الاحتفال بعيد تجسد الربّ مسمّياً إيّاه «فصحاً بهيّاً». فأضاف الأب ألكسندر كلمة «الشتاء» لنا نحن الذين نقيم هذا العيد في فصل الشتاء، إنباءً بانتصار النور والحياة في فصح الربيع، موت المسيح وقيامته.

علم الأب ألكسندر بإصابته بمرض السرطان في خريف العام ١٩٨٢. فاستقبل مرضه كفرصة لشهادة مسيحيّة. وكشخص تكلّم على المسيح كثيراً، اعتبر مرضه مفيداً له لكونه وُضع في تجربة لكي يثبت بالفعل، بنعمة الله وقوّته، كلّ الذي كان قد بشّر به بالكلام. فجاء مرضه عطيّة من الله لأنّه مكّنه من أن يطبّق ما سبق وبشّر به بحماسة وقوّة لمدّة طويلة.

تمّ فصح الأب شميمن الشتائيّ في كانون الأوّل من العام ١٩٨٣، عندما «انتقل من الموت إلى الحياة»، كما سمّته زوجته في رسالة، بعثتها إلى عائلة معهد اللاهوت، الذي كان يرأسه «عيد موت الأب».

«الحقّ الحقّ أقول لكم : إنّ من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبديّة ، ولا يأتي إلى دينونة ، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو٥: ٢٤).

تلقّى الأب شميمن المناولة الإلهيّة وسر مسحة المرضى يوم الخميس في الثامن من كانون الأوّل، وهو على سرير المستشفى في نيويورك. وفي نهاية الخدمة وبعدما قبّل صليب المسيح، وقال الكاهن والحاضرون «آمين»، تلفّظ الأب شميمن بصوت واضح ومرتفع «آمين، آمين، آمين». هذه الآمين الثلاثيّة يقولها الشعب مع الكاهن في القدّاس الإلهي، بعدما يستدعي الكاهن الروح القدس على القرابين المقدَّمة (الخبز والخمر) ليصيّرها جسد المسيح ودمه.

«أيضاً نقدِّم لك هذه العبادة الناطقة وغير الدمويّة، ونطلب ونسأل ونضرع أن ترسل روحك القدّوس علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة...
واجعل هذا الخبز جسد مسيحك المكرَّم، آمين.
وأمّا ما في هذه الكأس فدم مسيحك المكرَّم، آمين
محوّلاً إيّاهما بروحك القدّوس. آمين. آمين. آمين»[(١)].

تلّقى الأب ألكسندر المناولة الإلهيّة للمرّة الأخيرة في ١١ كانون الأوّل يوم الأحد الذي صادف أحد الأجداد[(٢)]. بعد تناوله الأسرار الإلهيّة، في البيت هذه المرّة، أصغى الأب ألكسندر إلى عائلته وأصدقائه وهم يرتّلون الترانيم السابقة للميلاد، والتي كان يحبّها بشكل خاصّ. وعندما انتهوا قال لهم: شكراً.

---

(١) من قدّاس القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم.

(٢) أنظر المقال رقم ١٤.

يوم الاثنين التالي (١٢ ك١)، وبسبب خطأ في روزنامة الكنيسة في أميركا، احتفل معهد القدّيس فلاديمير اللاهوتيّ بعيد القدّيس هرمان في كنيسة المعهد. في ذلك اليوم أصغى الأب ألكسندر، وهو جالس على كرسي في غرفته، إلى ترانيم وصلوات خدمة انفصال النفس عن الجسد. وبورك مرّة أخرى بالمسحة المقدّسة، ومن ثمّ استلقى على سريره الذي مات عليه.

هبّت عاصفة قويّة من يوم الأحد إلى الثلاثاء (١٣ ك١). فهاجت الريح ولفّت العتمة الأرجاء، وتمزّقت السماء رعداً وبرقاً، وغرقت الطرقات والأرصفة بالماء، وتناثرت أغصان الشجر في كلّ مكان. في عصر ذلك الثلاثاء سلّم الأب ألكسندر روحه للربّ، وحوله عائلته وأصدقاؤه. في تلك اللحظة، وصل الميتروبوليت ثيودوسيوس فما كان من الحضور إلا أن رتّلوا فوق جسده الراقد خدمة التريصاجيون، وحضّروا الجسد وألبسوه البزّة الكهنوتيّة، وأخذوه إلى كنيسة المعهد اللاهوتيّ، وهناك بدأ احتفال الأب ألكسندر بـ «الفصح الشتويّ» اللامع.

شارك في وداع الأب ألكسندر آلاف من الناس، وأكثر من مئة كاهن وأسقف. ورتّلت جوقة المعهد مع كلّ المؤمنين. وتحدّث في الخدمة كلّ من رئيس الأساقفة أياكوفوس من الأبرشيّة اليونانيّة، والميتروبوليت فيليب من الأبرشيّة الأنطاكيّة، وغيرهم عديدون. وأجاب الحاضرون في نهاية عظة المطران ثيودوسيوس، في ختام القدّاس الإلهيّ الذي أقيم يوم ١٦ كانون الأول، آمين. آمين. آمين. آمين لمشيئة الله. وآمين لحياة الأب ألكسندر وموته!

في يوم جنازة الأب أشرقت الشمس ورحلت الغيوم من السماء. ولاحظ الجميع أنّه كان شبيهاً بفصح الربّ الربيعيّ. واختبر الحاضرون،

معاني الفصح بالنسبة إلى المؤمنين، عندما سمعوا كلمات الأب ألكسندر التي قُرئت في القدّاس الإلهيّ.

«ليس همّ المسيحية أن تساعد الناس من طريق مصالحتهم مع الموت؟ بل أن تكشف لهم حقيقة الحياة والموت ليكون لهم، عبر هذه الحقيقة نصيب في الخلاص... لو قصدت المسيحيّة أن تنزع من الإنسان الخوف من الموت وتصالحه معه، لما كانت هناك حاجة إلى المسيحيّة، فالديانات الأخرى متفوّقة، ولا شكّ، في هذا المجال»[1].

الكنيسة هي المدخل إلى حياة المسيح القائم من الموت، وهي الشركة في الحياة الأبديّة، «فرح وسلام في الروح القدس». وهي ترقّب «النهار الذي لا يعروه مساء»، نهار الملكوت، ليس أي «عالم آخر»، بل ملء كلّ الأشياء وكلّ الحياة في المسيح. ففيه صار الموت ذاته فعل حياة، لأنّه ملأه بذاته، بحبّه ونوره. فيه (المسيح) «كلّ شيء لكم:... العالم أم الحياة، أم الموت، أم الأشياء الحاضرة، أم المستقبلة. كلّ شيء لكم. وأما أنتم فللمسيح، والمسيح لله» (١ كو٣: ٢١-٢٣). وإذا ما جعلت هذه الحياة الجديدة حياتي، إذا ما جعلت ذاك الجوع والعطش إلى الملكوت جوعي وعطشي، إذا ما جعلت ترقّب المسيح والثقة بأنّ المسيح هو الحياة ملكي، فإنّ موتي سيكون، كذلك، فعل شركة مع حياة المسيح. فلا حياة، لا موت يمكن أن يفصلنا عن محبّة المسيح. أنا لا أدري متى ولا كيف يكتمل كلّ شيء في المسيح. لكنّي أعرف أنّ هذا العبور الكبير، في المسيح، عبور العالم، قد بدأ، وأنّ نور «العالم الآتي» يأتينا في فرح الروح القدس وسلامه. فالمسيح قد قام والحياة قد سادت. بهذا الإيمان وبهذا اليقين تمتلئ معنى وفرحاً

(١) الأب ألكسندر شميمن، من أجل حياة العالم، منشورات النور، ١٩٩٤، تعريب الأرشمندريت توما (بيطار)، ص ١٤١-١٤٢.

كلمات القدّيس بولس، التي نقرأها، كلما احتفلنا «بعبور» أخ لنا، برقاده في المسيح:

«لأنّ الربّ نفسه بهتاف بصوت رئيس ملائكة وبوق الله، سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح سيقومون أوّلاً. ثمّ نحن، الأحياء الباقين، سنخطف جميعاً معهم في السحب لملاقاة الربّ في الهواء. وهكذا نكون مع الربّ دائماً» (١ تسا ٤: ١٦-١٧)[١].

❖

(١) الأب ألكسندر شميمن، من أجل حياة العالم، منشورات النور، ١٩٩٤، تعريب الأرشمندريت توما (بيطار)، ص ١٥١-١٥٢.

١٢

دانيال والفتية الثلاثة

خلال موسم التهيئة للميلاد، تقيم الكنيسة تذكارات لعدد من الأنبياء. منهم النبيّ دانيال والفتية الثلاثة حنانيا وعزرا ومصائيل (شدرَخ وميشَخ وعبدناغو)، الذين رفضوا السجود للوثن الذي أقامه الملك نبوخذ نصّر في بابل. فرماهم الملك في أتون نار مستعر إلى سبعة أضعاف، فأخذوا يمشون وسط الأتون وهم يرّتلون، وكان معهم شبه «شخص رابع» تعتبره الكنيسة تجلّياً مسبقاً لابن الله، يسوع المسيح نفسه[1].

«ومن حيث إنّ كلمة الملك شديدة والأتون قد حُمّي جداً، قتل لهيب النار الرجال، الذين رفعوا شدرخ وميشَخ وعبدناغو. وهؤلاء الثلاثة الرجال، شدرخ وميشَخ وعبدناغو، سقطوا موثقين في وسط أتون النار المتّقدة.

حينئذ تحيّر نبوخذنصّر الملك وقام مسرعاً فأجاب وقال لمشيريه: «ألم نلقِ ثلاثة رجال موثقين في وسط النار؟» فأجابوا وقالوا للملك: «صحيح أيّها الملك». أجاب وقال: ها أنا ناظر أربعة رجال محلولين

---

(١) يقع عيد دانيال النبيّ والفتية الثلاثة في ١٧ كانون الأوّل يسّمي كتاب النبي دانيال الأربعة بأسماء بابليّة: فدانيال النبي يُدعى بلشصّر، وحنانيا شدرَخ، وميشائيل ميشَخ، وعزريا عبدناغو. تصوّر الأيقونات الكلاسيكيّة الشخص الرابع في الأتون في صورة يسوع يحمل جناحين كبيرين وتسمّي «ملاك المشورة العظيمة» وهي نبوءة من إشعياء (انظر دانيال ٣ وإشعياء ٩).

يتمشّون في وسط النار وما بهم ضرر، ومنظر الرابع شبيه بابن الآلهة» (دا ٣: ٢٢-٢٥).

يعتبر عيد دانيال النبيّ والفتية الثلاثة أساسيّاً في الاحتفال بالإيمان بالله الواحد، ربّ إسرائيل الذي أنقذ الذين يؤمنون به، والذي سيقيم مملكته التي سيُجبَر الملوك الوثنيّون على الشهادة لها، في آخر الأزمنة. لذلك فإنّ نبوخذنصّر نفسه سوف يسبّح الربّ الله الواحد الذي يعبده الفتية الثلاثة.

وعند انتهاء الأيّام، أنا نبوخذنصّر، رفعتُ عينيّ إلى السماء، فرجع إليّ عقلي، وباركتُ العليّ وسبّحتُ وحمدتُ الحيّ إلى الأبد، الذي سلطانه سلطان أبديّ، وملكوته إلى دور فدور. وحسبتُ جميع سكّان الأرض كَلاَ شيء، وهو يفعل كما يشاء في جند السماء وسكّان الأرض ولا يوجد من يمنع يده أو يقول له: «ماذا تفعل؟». (دا ٤: ٣٤-٣٥)
الملك الفارسيّ داريوس أيضًا اعترف بالإله الواحد الكلّيّ السموّ. وذلك عندما خرج دانيال النبيّ من جبّ الأسود الذي رماه الملك فيه، قائلاً: «إنّ إلهك الذي تعبده دائماً هو ينجّيك» (دا ٦: ١٦).

ثم كتب الملك داريوس إلى كلّ الشعوب والأمم والألسنة الساكنين في الأرض كلّها: «ليكثر سلامكم. من قبلي صدر أمر بأنّه في كلّ سلطان مملكتي يرتعدون ويخافون قدّام إله دانيال، لأنّه هو الإله الحيّ القيّوم إلى الأبد، وملكوته لن يزول وسلطانه إلى المنتهى. هو ينجّي وينقذ ويعمل الآيات والعجائب في السماوات وفي الأرض. هو الذي نجّى دانيال من يد الأسود» (دا ٦: ٢٥-٢٧).
كان النبيّ دانيال رؤيويّاً، أي كتب رؤىً عديدة، أعاد العهد الجديد ذكرها في سفر الرؤيا، حيث تتطابق، وبوضوح، مملكة الله الأبديّة التي تنبّأ عنها مع مملكة الماسيّا- المسيح، يسوع الذي من الناصرة.

«كنت أرى أنّه وُضعت عروش، وجلس القديم الأيّام. لباسه أبيض كالثلج، وشعر رأسه كالصوف النقيّ، وعرشه لهيب نار، وبكراته نار متّقدة. نهر نار جرى وخرج من قدّامه. ألوف ألوف تخدمه، وربوات ربوات وقوف قدّامه. فجلس الديّن، وفُتحت الأسفار...

وكنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سُحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيّام، فقرّبوه قدّامه. فأُعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبّد له كلّ الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبديّ ما لن يزول، وملكوته ما لا ينقرض» (دا ٧: ٩-١٠، ١٣-١٤).

يفرح المسيحيون الذين يتهيّأون للفصح الشتويّ برجال الإيمان والرؤى التي تتنبّأ عن مجيء المسيح، الذي تنبّأ أمام بيلاطس قائلاً: «من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً على يمين القوّة، وآتياً على سحاب السماء» (مت ٢٦: ٦٤). إنّه هو المسيح الملك الذي فيه «قدّيسو العليّ يأخذون المملكة ويمتلكون المملكة إلى الأبد وإلى أبد الآبدين» (دا ٧: ١٨)

«أيّها المؤمنون
لقد جمعنا اليوم النبيّ دانيال روحياً
فوضع مائدة غنيّة بالفضائل
للأغنياء والفقراء، للغرباء وذوي الوطن
وكأساً عقليّة متدفّقة بماء حُسن العبادة
مفرّحة قلوب المؤمنين
ومانحة نعمة الروح القدس
لأنّ هذا النبيّ المصباح الباهر الضياء المتلألئ في العالم
قد حطّم معبودات الآشوريّين بجملتها
وسدّ أفواه الوحوش الضارية
وليُمدَح معه الثلاثة الفتية

الذين لم يكونوا ذهباً بحسب الطبيعة
وقد ظهروا أشدّ تمحيصاً من الذهب
لأنّ نار الأتون لم تسبكهم بل حفظتهم سالمين
فكُلِّلوا لاحتمالهم النفط والزفت والزرجون
وأمّا الربّ الذي أوصلنا إلى دور السنة
فليؤهلنّا أن نبلغ إلى اليوم السيّديّ الكلّيّ الوقار
يوم عيد ميلاد المسيح المانح لنا بتوسّلاتهم غفران الخطايا والرحمة العظمى».

«هلّموا بنا جميعاً
لنسبق ونعيِّد بإيمان
لميلاد المسيح
ونقدِّم التسبيح عقلياً بمثابة الكوكب
ولنهتف مع الرعاة بتماجيد المجوس صارخين
لقد أتى خلاص الآنام من الحشا البتوليّ
لكي يعيد دعوة البشر»[١].

❖

(١) خدمة غروب عيد النبيّ دانيال والفتية الثلاثة.

١٣

إيمان الفتية الثلاثة

تعدّ قصّة الفتية الثلاثة من القصص المحبوبة جداً في الليتورجيا الأرثوذكسيّة، التي لا تذكرهم في يوم عيدهم مع النبيّ دانيال في السابع عشر من كلّ عام وحسب، إنّما تذكر قصّتهم وترتّل لهم في الأحدين اللذين يسبقان عيد الميلاد، وفيهما يقام أيضاً تذكار كلّ أبرار العهد القديم الذين هيّأوا لمجيء المسيح[١]. بالإضافة إلى أنّ القصّة بكاملها تُقرأ في قدّاس سبت النور عشيّة الفصح المجيد. وتُخصَّص لهم الأودية السابعة والثامنة في كلّ صلاة سَحَر، كما في قوانين السَحَر القياميّة.

بالحقيقة تعود أهمّيّة الرواية لأسباب عدّة، أهمّها وأوّلها هو عدم مساومة الفتية على الإيمان بالإله الواحد الحقيقيّ، وشهادتهم للإيمان الحقيقيّ الأصيل. وكم يبدو تعبير الفتية عن الإيمان مختلفاً لو قورن بنظرة كثيرين إلى الإيمان اليوم.

يقول كثيرون هذه الأيّام، ومنهم مسيحيّون، إنّه لكي تملك إيماناً حقيقيّاً بالله يعني أن تعتمد على الربّ، أن نتأكّد أنّ أفعاله هي لفائدة شعبه الأرضيّ. وأن تَعدّ خلاصه في طرائق محض بشريّة. ويقولون إنّ الذين لا يعتبرون إيمانهم بهذه الطريقة هم ذوو إيمان ضعيف، ويشكّون بوعود الربّ. لكنّ موقفاً كهذا ليست له علاقة مع إيمان الفتية الثلاثة القدّيسين.

---

(١) انظر الفصلين ١٤ و١٥.

فلم يدّعِ الفتية الثلاثة أنّ الله سوف يخلّصهم من الموت حرقاً في الأتون، عندما واجهوا الملك الشرير؟ هم آمنوا بأنّه قادر على أن يخلّصهم بالتأكيد، لكنّهم لم يصّروا على أنّه سوف يخلّصهم!! بل بالعكس، شهدوا أنّ الله إلههم يعمل ما يريد. وأنّه ليس من شأنهم ما يعمل أو ما لا يعمل، وطبعاً هذا ليس من شأن الملك أيضاً. لقد وثقوا بإلههم في كلّ شيء. فإذا كانت مشيئته أن يخلّصهم، فهم جاهزون. وإن كانت مشيئته أن يفنوا بالنار، فهم حاضرون أيضاً. لأنّهم آمنوا بأنّه مهما عمل الله، يبقى الله الذي فيه يثقون من أجل انتصارهم المطلق. وبمعزل عن عمل الله، هم يبقون رهن أيّة ظروف، لن يسجدوا لوثن نبوخذنصّر الذي وضعه أمامهم. بكلمة أخرى، بحسب شهادة الفتية الثلاثة، الإيمان الحقيقيّ بالله والثقة به لا يعرفان المطالبة والمساومة. إنّه إيمان حاضر، حاضر بالكلّية وبالتمام، كما ظهر بشكل فائق في المسيح، حاضر ليقبل مشيئة الآب وعنايته، عارفاً أنّ المؤمنين به لن يُسلّموا إلى العيب. إيمان كهذا فقط يستطيع أن يحوّل النار إلى ندى وينجّي من الموت.

«حينئذ أمر نبوخذنصّر، بغضب وغيظ، بإحضار شدرخ وميشخ وعبدناغو. فأتوا بهؤلاء الرجال قدّام الملك. فأجاب نبوخذنصّر وقال: تعمّداً يا شدرخ وميشخ وعبدناغو لا تعبدون آلهتي ولا تسجدون لتمثال الذهب الذي نصبت. فإن كنتم الآن مستعدّين عندما تسمعون صوت القرن والناي والعود والرباب والسنطير والمزمار وكلّ أنواع العزف إلى أن تخرّوا وتسجدوا للتمثال الذي عملته. وإن لم تسجدوا ففي تلك الساعة تلقون في وسط أتون النار المتّقدة. ومن هو الإله الذي ينقذكم من يدي؟. فأجاب شدرخ وميشخ وعبدناغو وقالوا للملك: يا نبوخذنصّر لا يلزمنا أن نجيبك عن هذا الأمر. هوذا يوجد إلهنا الذي نعبده يستطيع أن ينجّينا من أتون النار المتّقدة، وأن ينقذنا

من يدك أيّها الملك. وإلا فليكن معلوماً لك أيّها الملك، أنّنا لا نعبد آلهتك ولا نسجد لتمثال الذهب الذي نصبته» (دا ٣: ١٣-١٨).

ويبقى الفتية الثلاثة في أتون بابل شهادة إلى الأبد عن الإيمان الحقيقيّ بالله الحقيقيّ. إنّهم، بطاعتهم الكلّيّة لله، يشيرون مسبقاً، إلى الذي «في أيّام جسده، إذ قدّم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرّعات للقادر أن يخلّصه من الموت، وسُمع له من أجل تقواه، مع كونه ابناً تعلّم الطاعة ممّا تألم به. وإذ كُمِّل صار لجميع الذين يطيعونه، سبب خلاص أبديّ» (عب ٥: ٧-٩). هذا هو الإيمان الوحيد الذي يستحقّه الذين يخدمون الله الحيّ، الذي يخلّص العالم بواسطة موت ابنه الملوكيّ.

«إنّ الأحداث الموقّرين. الكلّيّي الحكمة المجيدين
بما أنّهم كانوا متلألئين بالنور الإلهيّ
ازدروا بالنار
وإذ قد تندّوا فيها
أقاموا مصفاً بهيجاً
ونظموا النشيد الكثير التسبيح
ورتّلوه مترنّمين
لأنّهم صبوا إلى الملكوت السماويّ السرمديّ
الذي لا يستحيل بالحقيقة[١].

أيّها الفتيان المثلّثو الغبطة
إنّكم لم تعبدوا التمثال المصنوع باليد
لكنّكم لمّا تدرعتم بالجوهر الذي لا يُدرَك

---

(١) خدمة غروب عيد النبيّ دانيال والفتية الثلاثة القدّيسين.

مُجّدتم في جهاد النار
لأنّكم بانتصابكم في وسط اللهيب الذي لا يُطاق
دعوتم الله قائلين
أسرع يا رؤوف وبادر لمعونتنا بما أنّك رحيم
لأنّك قادر على ما تشاء»[1].

❖

(١) قنداق عيد النبيّ دانيال والفتية الثلاثة القدّيسين.

١٤

أحد الأجداد

تقيم الكنيسة الأرثوذكسيّة في الأحدين السابقين لعيد ميلاد الربّ بالجسد، تذكار الآباء القدّيسين الذين نقرأ عنهم في العهد القديم، بمن فيهم الذين عاشوا قبل الناموس (ناموس موسى). هؤلاء أخبروا بالمسيح قبل مجيئه، وافتداهم الربّ بدوره في فصحه الخلاصيّ. في يوم أحد الأجداد ترتّل القراءات التالية مع قانون ميلاد المسيح:

«لنقدّم مديحاً للآباء
الذين بزغوا قبل الشريعة وفي الشريعة
وبرأي مستقيم تعبّدوا للربّ السيّد
الشارق من البتول
متمتّعين الآن بنوره الذي لا يغرب»

«لنكرّم آدم المشرّف أوّلاً بيد خالقه
الصائر جدّاً لنا كلّنا
المستقرّ الآن في المظال السماويّة
مع جميع المختارين».

«إنّ إله الكلّ وربّهم
قد تقبّل قرابين هابيل التي قدّمها بنيّة خالصة
وحين أُميت قديماً بيد مغتالة
نقله إلى النور بما أنّه شهيد إلهيّ».

«إنّ غيرة شيث الحارّة لدى خالقه
يُشاد بها في العالم
لأنّه بالحقيقة قد خدمه بسيرة لا عيب فيها
وبطيب نفس
فالآن هو يهتف في بلدة الأحياء صارخاً
قدّوس أنت يا ربّ».

«إنّ أنوش العجيب بعزمه الإلهيّ
قد دعا سيّد الكلّ بالفم واللسان والقلب
متّكلاً على الإله بالروح
وإذ عاش على الأرض بسيرة حسنة الإرضاء
أحرز مجداً وشرفاً».

«لنستمع إلى الأقوال الإلهيّة هاتفة بظهور المسيح
لأنّه هو ذا يولد في مغارة
من فتاة لم تعرف رجلاً
فيسبق النجم ويظهر وينبئ المجوس بمولده الرهيب»[١].

تذكر تراتيل خدمات هذا اليوم (أحد الأجداد) الليتورجيّة، نوحاً وشمشون وباراق ويوشيا وناثان ولعازر وأيّوب وصموئيل وداود وابنه سليمان ودانيال أو الفتية الثلاثة. كما تذكر النسوة القدّيسات «اللواتي قديماً صنعن بقدرتك قوّات، أعني حنة ويهوديت ودبورة ويائيل وأستير وسارة ومريم أخت موسى، وراحيل ورفقة وراعوث السامية العزم»[٢]. بكلمة أخرى نكرّم هذا اليوم جميع أبرار العهد القديم، العبرانيّين وغير

(١) خدمة سَحَر أحد الأجداد. من المفيد أن نشير إلى لوحة فسيفساء ضخمة توجد في كنيسة خارج القسطنطينيّة تصوّر المسيح في المجد حاملاً قرطاساً كتب عليه: أرض الأحياء.
(٢) خدمة سَحَر أحد الأجداد.

العبرانيّين، الذين وجدوا حياتهم في الله، والذين كما تقول الرسالة إلى كولوسي، وكما تؤمن الكنيسة، «سوف تظهرون معه في المجد» (كول ٣: ٤).

«متى ظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تظهرون أنتم أيضاً معه في المجد. فأميتوا أعضاءكم التي على الأرض: الزنا، النجاسة، الهوى، الشهوة الرديئة، الطمع الذي هو عبادة الأوثان، الأمور التي من أجلها يأتي غضب الله على أبناء المعصية، الذين بينهم أنتم أيضاً سلكتم قبلاً، حين كنتم تعيشون فيها. وأمّا الآن فاطرحوا عنكم أنتم أيضاً الكلّ: الغضب، السخط، الخبث، التجديف، الكلام القبيح من أفواهكم. لا تكذبوا بعضكم على بعض، إذ خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله، ولبستم الجديد الذي يتجدّد للمعرفة حسب صورة خالقه، حيث ليس يونانيّ ويهوديّ، ختان وغرلة، بربريّ واسكيثيّ، عبد وحرّ، بل المسيح الكلّ وفي الكلّ» (كول ٣: ٤-١١).

تحاكي حياة الأبرار في العهد القديم حياة قديّسي الله في المسيح. فالناس القدّيسون يعيشون لله وحده، لله الحيّ ولكلمته (المسيح). تسبيح الله هو غاية وجودهم، لا بالكلمات بل بالأفعال، وهكذا يحيون.

هناك فرق كبير بين «الوجود» و«العيش». كثيرون موجودون لكنّ قليلين هم الذين يحيون. الذين عندهم حياة هم الذين يطلبون الله. الذين يستنيرون بوصاياه ويفرحون بإتمام مشيئته، يتجاوزون الوجود ليجدوا الحياة بالحقيقة. «أطلبوا الله فتحيا نفوسكم» (مز٦٩: ٣٢ الترجمة السبعينيّة)[1]. هذا هو نداء صاحب المزامير، داود الذي نرتّل له في هذا الأحد وفي الأحد الذي بعد الميلاد. نداؤه هذا ينسجم تماماً مع كلمات الله المعطاة لموسى في كشفه الناموس الإلهيّ.

---

(١) هذه ترجمة النسخة السبعينيّة التي تستخدمها الليتورجيا الأرثوذكسيّة الترجمة السبعينية في نصوصها الليتورجيّة.

«أنظر. قد جعلت اليوم قدّامك الحياة والخير، والموت والشرّ، بما أنّي أوصيتك اليوم أن تحبّ الربّ إلهك وتسلك في طرقه وتحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه لكي تحيا وتنمو، ويباركك الربّ إلهك في الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها. فإن انصرف قلبك ولم تسمع، بل غُويت وسجدت لآلهة أخرى وعبدتها، فإنّي أنبئكم اليوم بأنّكم لا محالة تهلكون. لا تطيل الأيّام على الأرض التي أنت عابر الأردن لكي تدخلها وتمتلكها. أشهد عليكم اليوم السماء والأرض. قد جعلت قدّامك الحياة والموت. البركة واللعنة. فاختر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك، إذ تحب الربّ إلهك وتسمع لصوته وتلتصق به، لأنّه هو حياتك والذي يطيل أيّامك لكي تسكن على الأرض التي حلف الربّ لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيهم إيّاها» (تث ٣٠: ١٥-٢٠).

اختار الأجداد، رجالاً ونساء، مع أنسالهم، الحياة. إذ وجدوها في ماسيّا الله، يسوع المسيح، الذي هو الحياة ذاتها، كلمة الله المتجسّد. والاحتفال بالميلاد، الفصح الشتويّ، هو الاحتفال بالحياة في المسيح كلمة الله. لأنّ «المسيح الذي هو حياتنا» قد أُظهر (كول ٣: ٤). لقد «رأينا مجده» (يو ١: ١٤). إنّ مجده الآن يحتجب في «صورة عبد» (في ٢: ٧)، لكنّه سينكشف في نهاية الأزمنة بقوّة للذين أحبّوا ظهوره و«سلكوا فيه» (٢ تيمو ٤: ٨، كول ٢: ٦).

«أيّها المؤمنون إذ نقيم اليوم تذكار الأجداد
فلنسبّح بإيمان المسيح المنقذ
الذي عظّمهم في جميع الأمم
الربّ الصانع العجائب المستغربة
بما أنّه عزيز وقدير
المظهر لنا منهم عصا قوّة

هي مريم فتاة الله النقيّة
التي هي وحدها لم تعرف رجلاً
ومنها ورد المسيح الزهرة
مفرعاً للجميع الحياة
والنعيم الذي لا يزول والخلاص الأبديّ»

«لقد زكّيت بالإيمان الآباء القدماء
وبهم سبقت فخطبت البيعة التي من الأمم
فليفتخر القدّيسون بالمجد
لأنّ في زرعهم أينع ثمر حسيب
وهي التي ولدتك بغير زرع
فبتوسّلاتهم أيّها المسيح الإله
خلّص نفوسنا»[1].

❖

(١) خدمة سَحَر أحد الأجداد.

١٥

الأحد قبل الميلاد

يعدّ الأحد الذي يسبق الميلاد، من الأيّام المميزة أيضاً في العبادة الليتورجيّة الأرثوذكسية. وفيه تحتفل الكنيسة بتذكار الرجال والنساء الذين آمنوا بالله الحقيقيّ، وهيّأوا الطريق لتجسّد ابن الله وكلمته. هذا يوم احتفال بإيمانهم وإقرار بأنّه وجد اكتماله وملأه في وعد الله المخلّص الذي هو الربّ يسوع المسيح.

«إرفعي صوتكِ حقيقةً، يا صهيون مدينة الله الإلهيّة،
واكرزي بتذكار الآباء الإلهيّ،
مكرِّمة مع إبراهيم وإسحق، يعقوب الدائم الذكر،
فها إنّنا نعظّم مع يهوذا ولاوي،
موسى العظيم وهارون العجيب،
ونحتفل مع داود بيشوع وصموئيل،
ناظمين جميعنا بالتسابيح الإلهيّة تسبيحاً إلهيّاً،
لتقدمة عيد ميلاد المسيح،
مستمدّين أن ننال صلاحه،
لأنّه هو المانح العالم الرحمة العظمى».

«هلمّ يا إيليّا المرتقي قديماً،
في المركبة الناريّة الإلهيّة،
ويا أليشع المتألّه العزم مع حزقيا ويوشيا،

ابتهجوا معاً،
وتباشر معهم يا مصفّ الأنبياء الاثني عشر
الموقّرين الملهمين من الله،
في عيد ميلاد المخلّص،
وياجميع الصدّيقين رتّلوا بالنشائد،
ويا أيّها الفتيان الكلّيّو الغبطة
الذين أخمدتم لهيب الأتون بندى الروح،
ابتهلوا من أجلنا متوسّلين إلى المسيح
أن يمنح نفوسنا الرحمة العظمى».

«لقد ظَهَرتْ على الأرض،
البتول والدة الإله التي كُرز بها منذ الدهر،
بأقوال الأنبياء.
وأخبر عنها رؤساء الآباء الحكماء.
ورهط الصدّيقين الذين يتباشر معهم
جمال النساء سارة ورفقة وراحيل
مع حنّة المجيدة ومريم أخت موسى
ومعهن تبتهج أقطار العالم
وتحتفل الخليقة بأسرها
لأنّ الإله يأتي لكي يولد بالجسد
ويمنح العالم الرحمة العظمى».

يوضح مجموع التعاليم الناموسيّة ولادة المسيح بالجسد الإلهيّة للذين بُشِّروا بالنعمة، وهم قبل الشريعة، بما أنّهم قد فاقوا بالإيمان على الشريعة. «فلذلك بما أنّ الولادة كانت علّة للنجاة من الفساد

سبقوا فكرزوا بقيامتك للنفوس المحبوسة في الجحيم أيّها الربّ المجد لك»[1].

نصّ الرسالة المخصّص لهذا الأحد مأخوذ من الرسالة إلى العبرانيّين، ويمدح إيمان أولئك الذين كانوا قبل المسيح ويتحدّث عنه بكلام رائع الجمال:

«وأمّا الإيمان فهو الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى. فإنّه في هذا شُهد للقدماء. بالإيمان نفهم أنّ العالمين أُتقنت بكلمة الله، حتّى لم يتكوّن ما يُرى ممّا هو ظاهر. ولكن بدون إيمان لا يُمكن إرضاؤه، لأنّه يجب أن الذي يأتي إلى الله يؤمن بأنّه موجود، وأنّه يجازي الذين يطلبونه».

تعدّد الرسالة الذين طلبوا الربّ، وتعلن أنّ أعمالهم كانت نتيجة إيمانهم. «**بالإيمان هابيل.. بالإيمان أنوش... بالإيمان نوح.. بالإيمان إبراهيم .. بالإيمان سارة... بالإيمان إسحق... بالإيمان يعقوب.. بالإيمان موسى ... بالإيمان هؤلاء الناس... بالإيمان راحاب...**» (انظر عبرانيّين ١١). كما تخبر الرسالة قصّة إيمانهم، مشدّدة على أنّ «**في الإيمان مات هؤلاء أجمعون، وهم لم ينالوا المواعيد، بل من بعيد نظروها وصدّقوها، وحيّوها**» (عب١١: ١٣). لذلك «**لا يستحي بهم الله أن يُدعى إلههم ، لأنّه أعدّ لهم مدينة**» (عب ١١: ١٦). إنّها «**مدينة الله الحيّ ، أورشليم السماويّة**» (عب ١٢: ٢٢) التي أعطاها إيّاهم المسيح ولذلك سوف يلتقي كمالهم سويّة مع كمالنا، وكلّ الذين عرفوا مجيئه وآمنوا به.

«وماذا أقول أيضاً؟ لأنّه يعوزني الوقت إن أخبرت عن جدعون، وباراق وشمشون، ويفتاح، وداود وصموئيل، والأنبياء، الذين

---

(١) خدمة سَحَر الأحد الذي قبل الميلاد.

بالإيمان قهروا ممالك، صنعوا براً، نالوا مواعيد، سدّوا أفواه أسود، أطفأوا قوّة النار، نجوا من حدّ السيف، تقوّوا من ضعف، صاروا أشدّاء في الحرب، هزموا جيوش غرباء. أخذت نساء أمواتهن بقيامة. وآخرون عُذِّبوا ولم يقبلوا النجاة لكي ينالوا قيامة أفضل. وآخرون تجرّبوا في هزء وجَلد، ثمّ في قيود أيضاً وحبس. رُجموا، نُشروا، جُرِّبوا، ماتوا قتلاً بالسيف، طافوا في جلود غنم وجلود معزى، معتازين مكروبين مُذلّين، وهم لم يكن العالم مستحقّاً لهم. تائهين في براري وجبال ومغاير وشقوق الأرض. فهؤلاء كلّهم، مشهوداً لهم بالإيمان، لم ينالوا الموعد، إذ سبق الله فنظر لنا شيئاً أفضل، لكي لا يكملوا بدوننا» (عب١١: ٣٢-٤٠).

إنّه تعليم مدهش. أولئك الذين عملوا مثل هذه الأشياء العظيمة، وامتلكوا مثل هذه القوّة والبأس، وتحمّلوا تعذيبات وآلاماً، «الذين كان العالم غير مستحقّ لهم»، لم يكونوا كاملين مثلنا مع كلّ هذا، عظمة إيمانهم. فإيمانهم كان في الذي فعل في زمانهم بتحقيق المواعيد الأولى التي قطعها لهم، ومن ثمّ بواسطتهم لنا، نحن أولادهم الروحيّين، لأجل هذا، نحن نتمثّل إيمانهم، ونحوز شجاعتهم، ونتثبّت قوّتهم، لنستطيع بدورنا أن نرث بركاتهم. هذه هي رسالة هذا الأحد المخصّص لتذكارهم.

«لذلك إذ نحن أيضاً لنا سحابة من الشهود مقدار هذه محيطة بنا، لنطرح كلّ ثقل، والخطيئة المحيطة بنا بسهولة، ولنحاضر بالصبر في الجهاد الموضوع أمامنا، ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمّله يسوع، الذي من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب مستهيناً بالخزي، فجلس في يمين عرش الله» (عب ١٢: ١-٢).

«ها البتول تأتي الآن إلى بيت لحم لتلد المسيح

الذي صار طفلاً بالجسد

الذي صار فقيراً طوعاً
الذي صار منظوراً
فلتفرح إذاً السموات والأرض».

«فلتنطرح التلال والجبال
وليرقص الأنبياء الذين تكلّموا بالله
ولتصفّق بالأيدي الشعوب والأمم
فخلاص الجميع واستنارتهم قد اقتربا
لأنّ المسيح يأتي ليولد في بيت لحم».

«الغنيّ وحده صار فقيراً
ليجعل الأغنياء في الشرّ فقراء
فالله يظهر في جسد مائت
ويولد بدون تغيّر (ألوهيّته) من فتاة لم تعرف رجلاً
فلنسبّحه جميعاً بالأناشيد
لأنّه قد تمجّد»[١].

❖

(١) خدمة سَحَر الأحد الذي قبل الميلاد (لم نعثر عليها في الميناون العربيّ: المترجم).

١٦

نَسَب يسوع المسيح

نقرأ الفصل الأول من إنجيل متى[١] في قدّاس الأحد الذي قبل الميلاد. ويبدأ هكذا: «**كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم**». وتذكر سلسة النَسَب الأجيال ابتداء من إبراهيم مروراً بداود وسبي الشعب العبرانيّ إلى بابل وصولاً إلى يسوع المسيح. إنّها سلسلة نَسَب منتقاة، تنتهي بظهور «**يوسف رجل مريم التي وُلد منها يسوع الذي يُدعى المسيح**». تختلف سلسلة نَسَب متّى عن التي في إنجيل لوقا. فالأخيرة تبدأ بيسوع وتعود إلى الوراء لتصل إلى آدم وليس إلى إبراهيم فقط (لو ٣: ٢٣-٣٨).

تتعدّد الأهداف من ذكر نَسَب يسوع في الإنجيل، أوّلها وأهمّها هو التأكيد على أنّ يسوع، الذي هو ابن الله حقّاً، كما تشهد كتب الإنجيل، قد أتى «بالجسد» كإنسان حقيقيّ. كان هذا التأكيد مهمّاً جدّاً في زمن الرسل والمسيحيّين الأوائل، لأنّه، على عكس أيّامنا، لم تكن تجربة القرن الأول للمسيحيّة قائمة على إنكار ألوهيّة يسوع، بل على إنكار بشريّته الأصيلة والحقيقيّة.

وللتاريخ، نذكر أنّ الهراطقة الأوائل قالوا بأنّ يسوع كان نوعاً من كائن إلهيّ (شرحوا هذا التعبير بطرائق وأساليب مختلفة) وقد ظهر فقط ليكون إنساناً حقّاً، لكنّه لم يكن إنساناً بالحقيقة لأنّ «اللحم

---

(١) مت ١: ١-٢٥.

والدم»، بنظر أولئك الهراطقة، كانا بحكم طبيعتهما محتقرَين، إن لم نقل كانا شرّاً. لذلك كان على بولس الرسول أن يشدّد على أنّ **كلّ ملء اللاهوت يحلّ جسديّاً (كول ٢: ٩)**، في يسوع، الذي ينتمي إلى اليهود «**بحسب الجسد**» (رو ٩: ٥)، وأنّ يسوع ذاته الذي مات ودُفن وقام بالجسد كإنسان حقيقيّ، هو الماسيّا (المسيح) والربّ[1].

حتّى إنّ الرسالة إلى العبرانيّين تشدّد على بشريّة يسوع الحقيقيّة أكثر من رسائل القدّيس بولس التي ذكرناها سابقاً. تؤكّد الرسالة إلى العبرانيّين أنّ يسوع ليس ملاكاً، أو نوعاً من كائن روحيّ سماويّ، بل ابن الله نفسه (عب ١-٢). كما تشدّد بقوّة أكثر، على أنّ ابن الله هذا صار «أقلّ من الملائكة» وأنّه كائن إنسانيّ حقيقيّ حتّى إنّه «**يذوق بنعمة الله الموت لأجل كلّ واحد**» (عب٢: ٩).

«**فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما، لكي يبيد بالموت ذلك الذي له سلطان الموت، أي إبليس، ويعتق أولئك الذين - خوفاً من الموت - كانوا جميعاً كلّ حياتهم تحت العبوديّة. لأنّه حقّاً ليس يُمسك الملائكة، بل يمسك نسل إبراهيم. ومن ثمّ كان ينبغي أن يشبه إخوته في كلّ شيء، لكي يكون رحيماً، ورئيس كهنة أميناً في ما لله حتّى يكفّر خطايا الشعب. لأنّه في ما هو قد تألم مجرَّباً يقدر أن يعين المجرّبين**». (عب ٢: ١٤-١٨).

«**الذي في أيّام جسده، إذ قدّم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرّعات للقادر على أن يخلّصه من الموت، وسُمع له من أجل تقواه، مع كونه ابناً تعلّم الطاعة ممّا تألم به. وإذ كمّل صار لجميع الذين يطيعونه، سبب خلاص أبديّ، مدعواً من الله رئيس كهنة على رتبة ملكي صادق**». (عب ٥: ٧-٩).

---

(١) انظر ١ كو ١٥: ٣-٤؛ غلا ٤: ٤؛ في ٢: ٦-١١

أمّا رسائل القدّيس يوحنّا الإنجيليّ فتعتبر الأكثر تشديداً على تجسّد المسيح. يبدو أنّ القدّيس يوحنّا والكنيسة المسيحيّة، التي كان فيها، عانوا كثيراً من هراطقة رفضوا الاعتراف بتجسّد حقيقيّ لابن الله، وأنكروا أنّه صار كائناً بشريّاً حقيقيّاً. لذلك يدينهم التلميذ الحبيب بعنف يبدو صادماً لكثير من مسيحيّي اليوم.

«أيّها الأحبّاء لا تصدّقوا كلّ روح، بل امتحنوا الأرواح: هل هي من الله؟ لأنّ أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم. بهذا تعرفون روح الله: كلّ روح يعترف بيسوع المسيح أنّه قد جاء في الجسد، فليس من الله، وهذا هو روح ضدّ المسيح الذي سمعتم أنّه يأتي، والآن هو في العالم». (١ يو ٤: ١-٣)

«لأنّه قد دخل إلى العالم مضلّون كثيرون، لا يعترفون بيسوع المسيح آتياً بالجسد. هذا هو المضلّ والضدّ للمسيح. انظروا إلى أنفسكم لئلا نضيّع ما عملناه، بل ننال أجراً تامّاً. كل من تعدّى ولم يثبت في تعليم المسيح فليس له الله. ومن يثبت في تعليم المسيح فهذا له الآب والابن جميعاً. إن كان أحد يأتيكم، ولا يجيء بهذا التعليم، فلا تقبلوه في البيت، ولا تقولوا له سلام؟. لأنّ من يسلّم عليه يشترك في أعماله الشريرة». (٢ يو٧-١١)

السبب الثاني لذكر نَسَب يسوع في الأناجيل هو توضيح أنّ الربّ هو بالحقيقة تحقيق الوعد الذي قطعه الله لآدم. هذا الوعد تأكّد، على سبيل المثال، في نشيد العذراء مريم في إنجيل لوقا (١: ٥٥)، ودافع عنه، كحقيقة لاهوتيّة، بولس الرسول في كتاباته التي نذكر منها على سبيل المثال،، الرسالة إلى كنيسة غلاطية حيث يقول: «وأمّا المواعيد فقيلت في إبراهيم وفي نسله... الذي هو المسيح» (غلا ٣: ١٦). أيضاً توضح سلسلة النَسَب أن يسوع هو تحقيق الوعد لداود الملك

بأنّ واحداً من نسله سوف يجلس على العرش ويحكم مملكة الله التي ليس لها نهاية[1].

يذكر القدّيسان متّى ولوقا في إنجيليهما، في سلسلة النسب، يوسف، لا ليعطيا انطباعاً أنّ المسيح من زرعه. فالإنجيلان واضحان بشكل مطلق في هذه النقطة. يسوع يولد من العذراء مريم بقوّة الروح القدس. بل ليذكّرا بأنّ يوسف أب يسوع بحسب الناموس، فوالد يسوع الشرعيّ هو «يوسف بن داود»[2]، الذي هو ذاته «*رجل مريم الشرعيّ*» (مت١: ٢٠).

هناك أمر آخر مهمّ في لائحة الأجيال البشريّة التي تقود إلى ولادة يسوع. وهو أنّ الله أمين على مواعيده حتّى لو كان شعبه غير أمين في غالب الأحيان. فمن بين الناس الذين أتى يسوع منهم خطأة وجاهلون. بكلمة أخرى، لم يأتِ يسوع من نسل أبرار وقدّيسين فقط، بل من خطأة وبائسين أيضاً. لم يأتِ فقط من اليهود، بل من الأمم أيضاً. فمتّى الإنجيليّ يورد أسماء أربع نساء عمداً، وهنّ تامار، راحاب، راعوث وزوجة أوريا (بتشابع)، وكن إمّا زانيات أو غريبات، وإحداهنّ صارت أمّ سليمان الملك.

هذا التعليم يظهر في إحدى الترانيم المسيحيّة الأولى الواردة في الرسالة الثانية إلى تيموثاوس:

«صادقة هي الكلمة:
إن كنّا قد متنا معه فسنحيا أيضاً معه
إن كنّا نصبر فسنملك أيضاً معه
إن كنّا ننكره فهو أيضاً سينكرنا
إن كنّا غير أمناء فهو يبقى أميناً، لن يقدر على أن ينكر نفسه».

(٢ تيمو ٢: ١١-١٣)

---

(١) انظر مز ٨٩؛ لو ١: ٣٢؛ ٦٩، عب ١.

(٢) انظر أيضاً لو ١: ٢٧ ؛ ٢: ٤.

الشهادة الرائعة لنسب المسيح هي: أنّنا إن كنّا غير أمناء، فإنّ الله الربّ يظل أميناً، لأنّه لا يستطيع أن ينكر ذاته!

«ها قد اقترب زمان خلاصنا
فيا أيّتها المغارة تهيّأي
فالبتول آن لها أن تلد
و يا بيت لحم، أرض يهوذا
اطربي وابتهجي
إذ منكِ أشرق ربّنا كما الفجر
اسمعي أيّتها الجبال والتلال
وكلّ الأرض المحيطة بيهوذا
لأنّ المسيح يأتي ليخلّص الإنسان
الذي جبله
بما أنّه محبٌّ للبشر»[1].

❖

---

(١) خدمة غروب الأحد الذي قبل الميلاد.

١٧

لنحتفل أيّها الشعوب

ترتفع نبرة الدعوة إلى الاحتفال بالعيد بقوّة مع الأيّام الخمسة التي تسبقه[١]. فتراتيل هذه الفترة تدعو المؤمنين إلى تهيئة نفوسهم من أجل العيد، وإلى الاستعداد لاستقباله.

«لنسبق ونعيّد أيّها الشعوب لميلاد المسيح
وإذ نرفع العقل إلى بيت لحم، فلنرتقِ بضمائرنا
ونشاهد بأفكار القلوب
البتول مقبلة لتلد في المغارة
ربّ الكلّ إلهنا
الذي قد عاين يوسف جسامة عجائبه
وكان يظن أنّه يبصر إنساناً مدرَجاً في الأقمطة كطفل
لكنّه تيقّن من الأفعال أنّه هو الإله الحقيقيّ
المانح نفوسنا الرحمة العظمى».

«لنسبق ونعيّد أيّها الشعوب لميلاد المسيح
وإذ نرفع العقل إلى بيت لحم
فلنرتقِ بضمائرنا ونشاهد السرّ العظيم

---

(١) توزّع بعض الكنائس خدَم هذه الأيام الخمسة على فترة صوم الميلاد (تقرأ كلّ أسبوع خدمة يوم منها) حتّى يتمكّن المؤمنون الذين لا يستطيعون المجيء إلى الكنيسة يوميّاً في الأسبوع السابق للعيد، من عيش روح الاستعداد للميلاد.

الذي في المغارة
لأنّ عدناً قد فُتح بورود الإله من البتول النقيّة .
كاملاً باللاهوت والناسوت
فلنهتف لذلك صارخين
قدّوس الله الآب الأزليّ
قدّوس القويّ الابن المتجسّد
قدّوس الذي لا يموت الروح المعزّي
أيّها الثالوث القدّوس المجد لك»[١].

لنحتفل أيّها الشعوب! لنرتفع بالروح! لنرفع عقولنا إلى العلاء! ليست مجرّد هتافات حماسة تقَويّة وغيرة عاطفيّة لأناس عاطفيّين، يحبون هذا اللون من الحياة. إنّها حثّ ووصايا أساسية في الحياة الروحيّة، لكلّ البشر الذين يجب أن يسمعوها ويطيعوها، لأنّ حياتهم تعتمد عليها فعليّاً.

لقد خُلقنا لنحتفل بعطايا الله، وبالله نفسه. هذا هدف وجودنا ومادّة حياتنا. كلّ الخطيئة البشريّة، بما فيها «الخطيئة الأصليّة»، خطيئة آدم وحوّاء، هي فشل بالاحتفال بالشكل الملائم بالله، وبما يعمله لمصلحة الذين خلقهم على صورته ومثاله.

الاحتفال الخاطئ، الذي ليس احتفالاً البتّة، بل خطيئة، هو ذاك الذي يقصي الله، ويحاول أن يفرح بأشياء أخرى بدلاً منه تعالى، وبدلاً من حضوره في العالم وفعله فيه. أو بكلمات أخرى، هو الاحتفال بعطايا الله من دون الرجوع إلى معطيها. والنتيجة الحتميّة له هي أن تعتري الإنسان مشاعر عدم الرضى واليأس والكآبة والموت.

---

(١) خدمة اليوم الأوّل من الأيّام الخمسة السابقة للعيد، أي ٢٠ كانون الأوّل.

زمن الميلاد هو زمن احتفال، موسم سعادة وفرح. لكن كثيرين بمن فيهم مسيحيّون ينحرفون عن روح الاحتفال الفرِح. يعتبرون الموسم موسم كَدَر وملل، فتخيب آمالهم ويتملّكهم اليأس، حتّى إنّهم يسعدون بانقضاء الموسم! السبب الجليّ يكمن في الطريقة الخاطئة التي يعتمدونها في الاحتفال.

بعض الناس لا يحتفلون بالله وبعطاياه، بخاصّة العطيّة العظمى على الإطلاق: يسوع المسيح. بل ينغمسون في المتع الجسديّة والشهوات اللحميّة. يقضون وقتاً طويلاً في اللهو، فيزوغ منهم الفرح الأصليّ. يصلون إلى نهاية «عطلة الميلاد»، وهم يطلبون المزيد من الذي فعلوه لأنّ الذي حصلوا عليه، لم يكن كافياً.

آخرون يُقبلون على موسم العيد، بعزيمة متشدّدة بالاحتفال بالمخلّص عطيّة الله. يكونون جدّيّين إلى درجة قصوى. يشدّدون قبضتهم ويُطبقون أسنانهم، بقصد أن يحفظوا العيد «دينيّاً» و«روحيّاً». لكنّهم يبقون بعد انقضاء العيد فارغين وأمواتاً لأنّهم صرفوا كلّ طاقاتهم في مراقبة الآخرين، وإدانة سلوكهم الجنونيّ، والبؤس الذي هم فيه. أناس كهؤلاء بدلاً من أن يمتلئوا من أفراح العيد الإنسانيّة مع نعمة الله، يخرّبون الزمن المقدّس تجاه نفوسهم وعائلاتهم وأصدقائهم، عندما يلعنون «الدهريّة» و«التجاريّة» التي سرت عدواها في العيد. بدلاً من أن يباركوا الله ويتمتّعوا بالاحتفال بما هو حقّاً أمامهم. فبينما هم يقرّعون رفاقهم لأنّهم لا «يحفظون المسيح في الميلاد»، هم بالواقع يقصون فرح المسيح عن احتفالهم بسبب برّهم الذاتيّ الفرّيسيّ، وبسبب إدانة إخوتهم الذين من أجلهم أتى المسيح ومن أجلهم مات، بغضّ النظر عن معرفتهم بفعل المسيح أم عدم معرفتهم به.

لنحتفل أيّها الشعوب! لكن لنحتفل بشكل ملائم. ولنرتفع إلى بيت لحم، لا إلى بيوت الآخرين. لنرفع عقولنا إلى الربّ، ولا ندعها تتوه في

سيَر جيرانه. لنركّز على الله ونفرح برحمته ومحبّته للعالم، حتّى «المدهرن» و«التجاريّ» منه، ذلك العالم الذي يحكمه الشيطان الشرير. لا نفسدنّ العيد بالاهتمام بما يفعله الآخرون أو لا. لنناضل لـ «نحفظ المسيح في الميلاد» من أجل نفوسنا أوّلاً وقبل الكلّ، بحفظ المسيح في ذواتنا وحفظ ذواتنا في المسيح. ومن ثمّ يصير الميلاد احتفال الله المعطي الذي هو، الاحتفال بمجيء الله في شخص ابنه. فقط بهذه الطريقة سيكون احتفالنا مرضياً للربّ، مالئاً نفوسنا، وملهماً للآخرين. لأنّه يكون عندها شهادة حيّة للاحتفال الحقيقيّ، أي احتفالاً بما صنعه الله لنا.

العالم اليوم بحاجة ماسّة إلى احتفال إلهيّ. وهذا ما يفعله كثير من المسيحيّين وكثرة من الكنائس. لأنّه بينما البعض يهتمّون باللهو وآخرون يدينونهم من أجل لهوهم، فلا الأوّلون ولا الآخرون فرحون حقّاً وينعمون بالسلام. لأنّه ما من أحد يستطيع أن يرضى من دون حضور الله الكليّ الرحمة الذي يحبّ خلائقه، ويأتي ليشفيها ويغفر لها جنونها وخطاياها. وما من احتفال مُرضٍ حقّاً من دون حضور رحمة الله ومحبّته.

«هلّموا بنا كافّة
لنسبق ونعيّد بإيمان
لميلاد المسيح
وإذ نقدمّ التسبيح عقلياً
بمثابة الكوكب
فلنهتف مع الرعاة بتماجيد المجوس قائلين
لقد أتى خلاص البشر من الحشا البتوليّ
ليُعيد دعوة المؤمنين إلى الحياة»(1)

---

(1) خدمة غروب يوم ٢٠ كانون الأوّل.

«لنطرح عنّا كما يليق
كلّ أدناس الأهواء
ونتّخذ عزماً فاضلاً لأجل حضور المسيح
لأنّه يأتي بغير دنس
ليتسربل جسداً
ويمنح الجميع بالروح
إعادةً إلهيّة لجبلتهم»

«إذا شاهدنا المسيح متّضعاً
فلنرتفع عن الأهواء الدنيئة
ولنَغَر غيرةً صالحة
ولا نتشامخ بعقولنا
حتّى إذا تثقّفنا بالإيمان
نتواضع بالروح
حتّى إنّنا بالأفعال السامية نعلّي المولود»(١)

❖

(١) خدمة صلاة النوم ليوم ٢٠ كانون الأوّل.

١٨

المسيح يأتي ليعيد الصورة

خلق الله الكائنات البشريّة، ذكوراً وإناثاً، على صورته ومثاله[١]. هذا تعليم أساس في العقيدة المسيحيّة. وهذا يعني، ببساطة، أنّنا كبشر، لسنا نتاج وراثتنا الطبيعيّة والبيئيّة، أو نتاج تجميل بيولوجيّ أو تركيب جينيّ. ولسنا نتيجة بعض تركيبات جزيئات فيزيائيّة وخلايا ماديّة تمّت بالمصادفة، ولا مجرّد خلاصة مسيرات تاريخيّة، أو أنظمة اقتصاديّة، وهيئات سوسيولوجيّة. لا تقاس حياتنا بكمّيّة ما نملك ولا بقوّة إرادتنا، ولا بفرصنا الثقافيّة، أو دوافعنا الجنسيّة. فكلّ ما ذكرناه وعوامل أخرى غيرها مهمّة جداً في حياة الناس، حتّى إنّها حرجة، لكنّها ليست هي التي تجعلنا بشراً .لأنّ نسيجنا الأساس والأصليّ هو تعابير وجود الله وحياته المخلوقة الأكثر كمالاً. نحن مخلوقون لنكون «متمثّلين بالله» و «شركاء الطبيعة الإلهيّة» (أف ٥: ١، ٢ بط ١: ٤).

أن يكون الإنسان على صورة الله ومثاله يعني أنّه كائن روحيّ ومادّيّ. هو شخص حرّ يقرّر مصيره ودرايته. شخص قابل لأن يعرف الخير ويعمله. قادر على أن يجتهد ويعتني. باستطاعته القيادة والفلاحة، والخلق والضبط. إنه بكلمة، وكما يقول كل القديسين الأرثوذكس، قادر على أن يصير بالمطلق، بإرادته الصالحة وبنعمة الله، ما هو الله عليه بالطبيعة.

---

(١) انظر تك ١: ٢٦-٢٧؛ ٥: ١-٢.

الله إله حيّ، ونحن أيضاً مخلوقون للحياة. الله صالح ونحن مخلوقون لنكون صالحين. الله حكيم، ونحن مخلوقون لنكون حكماء. الله سلاميّ وفرِح ولطيف ومتحنّن وقويّ وناعم. وهذا ما يجب أن نكون عليه. الله يحيا إلى الأبد ولا يموت، ونحن أيضاً مدعوون إلى الحياة الأبديّة. الله يسود كلّ ما قد خلقه، ونحن المخلوقون على صورته ومثاله، مخلوقون لنعتني بخليقته. لقد خلقنا الله لنكون، في كلّ شيء، على مثاله. والأهم من هذا كلّه، والذي يحتوي كلّ العناصر الجزئيّة والخاصّة: هو أنّ الله محبّة (١ يو ٤: ٨، ١٦). ونحن خُلقنا منه أيضاً لنكون محبّة. مخلوقون لنحبّ كما يحبّ هو. لنحبّ كلّ الأشياء التي يحبّها هو. ونحن نحبّه هو قبل كلّ شيء وفوق كلّ شيء.

يعود السبب في أحزان البشر وآلامهم إلى فشلهم في أن يصيروا على ما خلقهم الله ليصيروا عليه، أي إلى فشلهم في المحبّة. هذا معنى خطيئة آدم وحوّاء في الكتاب المقدّس. يستخدم الإنسان طبيعته المشابهة لله، ويستعمل قواه المشابهة لله، للشرّ بدلاً من أن يستخدمها للخير. للكذب بدلاً من الحقّ، للخراب بدلاً من الخلق، للموت بدلاً من الحياة. يدمّر الشر كيانهم، ويمزّقون الصورة الإلهيّة في داخلهم، ويفقدون مثال الله.[1]

يؤكّد المسيحيّون الأرثوذكس أن يسوع المسيح أتى ليعيد صورة الله ومثاله في الإنسان. ليؤهّله لكي يصير على ما خطّط له منذ البدء. يعمل يسوع هذا، ليس لأنّه ابن لله وكلمته فقط، بل لأنّه أيضاً «صورة الله غير

---

(١) يميز بعض اللاهوتيّين الأرثوذكس، وبعض آباء الكنيسة مثل القدّيس غريغوريوس النيصصيّ والقدّيس مكسيموس المعترف بين الصورة والمثال. فيعتبرون الصورة هي ما أعطاه الله للإنسان عندما خلقه، وهذه لا يمكن أن تدمّر. أمّا المثال فهو ما يجب أن ينمو ويتطوّر في الإنسان، أو يمكن أن يفقد. لا يتبنّى الجميع هذا التفريق. بعض آباء الكنيسة كالقدّيس أثناسيوس الكبير، لا يتبنّون هذا التفريق، ويستعملون الكلمتين (الصورة والمثال) كمترادفتين. تميل ليتورجيا الكنيسة إلى الجهة الثانية.

المنظور» (كول ١: ١٥، ٢ كو ٤: ٤). يقول يسوع إنّ الذين يرون يسوع، يرون الله.

قال له فيلبّس: «يا سيّد، أرنا الآب وكفانا». قال له يسوع: «أنا معكم زماناً هذه مدّته ولم تعرفني يا فيلبّس! الذي رآني فقد رأى الآب. فكيف تقول أنت أرنا الآب؟» (يو ١٤: ٨-٩).

يعيد المسيح صورة الله في الكائن الإنسانيّ، الكيان الذي هو صورة الله نفسه غير المخلوق والأبديّ، بصيرورته كائناً إنسانيّاً حقيقيّاً، آدم «الأخير» و«النهائيّ»، «الإنسان الذي من السموات».

«هكذا مكتوب أيضاً: «صار آدم، الإنسان الأوّل، نفساً حيّة، وآدم الأخير روحاً محيياً». لكن ليس الروحانيّ أوّلاً بل الحيوانيّ، وبعد ذلك الروحانيّ. الإنسان الأوّل من الأرض ترابيّ. الإنسان الثاني الربّ من السماء. كما هو الترابيّ هكذا الترابيّون أيضاً، وكما هو السماويّ هكذا السماويّون أيضاً. وكما لبسنا صورة الترابيّ، سنلبس أيضاً صورة السماويّ» (١ كو ١٥: ٤٥-٤٩).

كآدم الثاني والنهائيّ، يسوع فعل كلّ شيء كان آدم الأوّل والأصليّ مدعواً إلى فعله، لكنّه فشل. إنّه يطيع الله. يمجّد اسمه. يتلألأ في حضوره. يعبد ألوهيّته. يشكره على عطاياه. يردّد كلماته. يعمل عمله. يتمّم إرادته. ويحقّق ذاته بأسلوب إنسانيّ كما خُلق على صورته ومثاله. لكونه ابن الإله نفسه، صورة الله وكلمته غير المخلوق، فإنجازه يشمل الجنس البشريّ كلّه، وهو بدوره يتمّمه بكلّيّة وحرّيّة ليكون بمتناول جميع الناس. «لأنّه كما أنّه في آدم يموت الجميع، هكذا في المسيح سيحيا الجميع» (١ كو ١٥: ٢٢). لأنّ آدم نفسه كان «مثال الآتي» (رو ٥: ١٤). هذا هو يسوع.

«ولكن ليس كالخطيئة هكذا أيضاً الهبة. لأنّه إن كان بخطيئة واحد مات الكثيرون، فبالأَوْلى كثيراً نعمة الله، والعطيّة بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت للكثيرين. وليس كما بواحد قد أخطأ هكذا العطيّة. لأنّ الحكم من واحد للدينونة، وأمّا الهبة فمن جرّى خطايا كثيرة للتبرير. لأنّه إن كان بخطيئة الواحد قد ملك الموت بالواحد، فبالأَوْلى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة وعطيّة البرّ، سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح». (رو ٥: ١٥-١٧).

هذه رسالة الميلاد. هناك آدم جديد. هناك استعادة لصورة الله. إنّها صورة مستعادة من الصورة نفسه، ابن الله وكلمته، يسوع المسيح. فيه وجد الجنس البشريّ ملأه وكماله. به تستطيع الكائنات البشريّة أن تحيا. به يستطيع البشر إتمام أنفسهم كمخلوقات مصنوعة لتكون بنعمة الله كلّ ما هو عليه الله بحسب الطبيعة. به يستطيع جميع البشر أن يكونوا أناساً.

«استعدّي يا بيت لحم
فقد فتحت عدن للجميع
تهيّأي يا أفراثا
لأنّ عود الحياة قد أزهر في المغارة من البتول
لأنّ بطنها قد ظهر فردوساً عقلياً
فيه الغرس الإلهيّ الذي إذ نأكل منه نحيا
ولا نموت مثل آدم
المسيح يولد منهضاً الصورة التي سقطت منذ القديم»[1].

(١) طروباريّة ما قبل العيد. أفراثا، غالباً ما تذكر في ليتورجيا الميلاد، وهي المقاطعة التي تقع بيت لحم فيها. انظر ميخا ٥: ٢.

«إنّ الحكمة المبدعة تأتي الآن
والسحب النبويّة تنقشع
والنعمة تتجلّى
لأنّ الحق قد بزغ سطعاً
والرموز الظلّيّة قد بطلت
وباب عدن قد فُتح
فاستبشر يا آدم
لأنّ إلهنا الخالق قد تجسّد باختياره»[1].

«هلمّوا بنا كافّة
لنسبق ونعيّد بإيمان
لميلاد المسيح
وإذ نقدّم التسبيح عقلياً
بمثابة الكوكب
فلنهتف مع الرعاة بتماجيد المجوس قائلين
لقد أتى خلاص البشر من الحشا البتوليّ
ليعيد دعوة المؤمنين»[2].

«هلمّوا أيّها المؤمنون
لنستقبل الخالق
آتياً إلى الأرض ليشرق من البتول
فلنتلألأ بالنقاوة
ونسطع بالفضائل
ونتأهّب برعدة وفرح

---

(١) خدمة سَحَر يوم ٢١ كانون الأوّل.
(٢) خدمة غروب يوم ٢٠ كانون الأوّل.

حتّى إنّنا بباصرة العقل
نشاهد المسيح صائراً طفلاً
مؤلّهاً إيّانا نحن البشر
بصلاحه غير المتناهي»[1].

❖

(١) خدمة سَحَر يوم ٢٠ كانون الأوّل.

١٩

شجرة الحياة المزهرة

تحكي تراتيل الفترة التي تسبق الميلاد عن ميلاد المسيح الذي يُنبىء بعودة الفردوس. يولد المسيح وبوّابات عدن تُفتح ثانية. يأتي المخلّص وشجرة الحياة تزهر.

«إنّ الربّ لكي يتمّم أقوال الأنبياء السابقة
يولد في بيت لحم ويفتح عدناً للذين هم من آدم»(١)

«استعدّي يا بيت لحم
فقد فُتحت عدن للجميع
تهيّأي يا أفراثا
لأنّ عود الحياة
قد أزهر في المغارة من البتول
لأنّ بطنها قد ظهر فردوساً عقلياً
فيه الغرس الإلهيّ
الذي إذ نأكل منه نحيا
ولا نموت مثل آدم
المسيح يولد
منهضاً الصورة التي سقطت منذ القديم»(٢).

---

(١) خدمة سَحَر يوم ٢١ كانون الأوّل.

(٢) طروباريّة قبل العيد.

ليس الفردوس مكاناً على الخارطة. إنّه حالة روحيّة. عندما يعرف الإنسان الله ويحيا في شركة معه، يكون الفردوس. وعندما لا يعرف الإنسان الله بل يحيا في شركة عدميّته الخاصّة، يكون الموت والجحيم، «أرض المنسيّين» (مز ٨٨: ١١-١٢).

في الواقع، الإنسان الذي يعرف الله هو، فقط، الذي يحيا. ويسوع نفسه يقول: «**وهذه هي الحياة الأبديّة، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقيّ وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته**» (يو ١٧: ٣).

تتكلّم رواية الكتاب المقدّس على شجرتين كانتا موجودتين في الفردوس ولكلّ منهما معنى خاصّ. هما «شجرة معرفة الخير والشرّ» و «شجرة الحياة». حسب الرواية الكتابيّة، يخبر الربّ آدم وحوّاء أنّه بإمكانهما الأكل من ثمر جميع أشجار الفردوس ماعدا ثمر شجرة معرفة الخير والشرّ. كما يخبرهما أنّهما إذا تناولا من ثمرها، إذا لمساها حتّى، سوف يموتان. لم يقل الله لهما، سوف أقتلكما. بل قال إنّ الفعل بحدّ ذاته سوف يقتلهما، على غرار تناول السمّ[(١)].

في تقليد الكنيسة، تفاسير كثيرة لمعنى الأكل من شجرة معرفة الخير والشرّ. ومع أنّ التفاسير جميعها تتفّق على أنّ الفعل دمّرنا، وأنّه تمّ بعدم الطاعة، بعدم الثقة، بالكبرياء، بنقصان الشكر، وبالتأكيد، نقص محبّة الله على مستوى خلائقه، إلا أنّ هناك تبايناً في فهم الفعل بحدّ ذاته.

نستعرض ما يقوله القدّيس غريغوريوس النزينزيّ، على سبيل المثال. فهو يعتقد أنّ الأكل من الشجرة يرمز إلى حالة متقدّمة من الاتحاد الروحيّ مع الله، وأنّ آدم وحوّاء ما كانا مستعدّين بعد لهذه الحالة. كما يعتقد أنّ الله كان سيدعوهما بالتأكيد ليتناولا من الشجرة عندما ينضجان بشكل كافٍ. لذلك خطيئتهما كانت نوعاً من غرور. الفكرة هي

---

(١) انظر تك ٢: ١٥- ٣: ٧

أنّنا يجب أن ننمو في علاقتنا مع الله. يجب أن ننضج ونتطوّر. يجب أن ندخل في الاستنارة، والتأمّل والاتحاد بالله بواسطة مسيرة روحيّة طويلة. لا نستطيع أن نقفز إليها قبل أن نكون مستعدّين ومهيّأين. وإلا فإنّنا ندمّر ذواتنا[1].

للأب ألكسندر شميمن تفسير آخر حول معنى أكل آدم وحوّاء من شجرة معرفة الخير والشرّ. يقول:
«وثمرة تلك الشجرة، تحديداً، كانت مختلفة عن باقي ثمار الجنّة. وبغضّ النظر عمّا يمكن أن يكون لها من معانٍ رمزيّة، فإنّ الله، كما هو واضح، لم يعطها للإنسان ولا باركها. لذلك، كل من يأكل منها تُحسَم شركته مع الله، ولا تكون له شركة إلا مع الثمرة وحدها. هذه هي صورة العالم المحبوب من أجل ذاته. أكل الثمرة هو صورة الحياة المعتَبَرة غاية في ذاتها»[2].

معظم تفاسير الرواية، تقول ببساطة إنّ خطيئة آدم كانت خبرة فعليّة للشرّ، فعل كسر للعلاقة مع الله، التقدّم لمعرفة الفرق بين الخير والشرّ بواسطة إدراك البؤس. فهم الفعل الذي قام به آدم وحوّاء ليس بذي أهمّيّة. فليس هدف الرواية إخبارنا عن هذه المعصية المحدّدة أو تلك. إنّما عن المعصية بحدّ ذاتها. إنّها تُظهر ما يحدث عندما يرتكب الإنسان أي نوع من الشرّ، أيّ نوع من الخطيئة، أيّ نوع من تعدٍّ أو عصيان إرادة الله.

لم يضع الله شجرة معرفة الخير والشرّ في وسط الفردوس من أجل أن يختبر الإنسان أخلاقيّاً أو روحيّاً. ليست الشجرة «امتحاناً». إنّها،

---

(١) انظر غريغوريوس النزينزيّ، العظة ٣٠، في الأنوار الإلهيّة والإبيفانيا، ٧؛ العظة ٤٥، العظة الثانية في الفصح، ٨.

(٢) الأب ألكسندر شميمن، من أجل حياة العالم، تعريب الأرشمندريت توما (بيطار)، ص ٢٥.

بدون أيّ شكّ، واقع. تقف إمكانيّة الخطيئة دائماً في وسط الفردوس. ويجب أن تكون هناك. ولا تستطيع أن تكون خلاف ذلك. نحن أحرار. ولذا يقول الله لنا: الشجرة هناك. لا تذقها، وحتّى لا تلمسها. لكنّها كانت تبدو «جيّدة للأكل» و«بهجة للعيون»، و: «شهيّة للنظر»[1]. لم يستطع آدم وحواء أن يقاوما. تناولا منها، فماتا.

لكن في وسط الجنّة هناك شجرة أخرى أيضاً، إنّها «شجرة الحياة». هذه ترمز، بحسب كلّ التفاسير الكنسيّة، إلى حقيقة الشركة مع الله، حقيقة الطاعة والحقّ والحياة ذاتها. إنّها صورة ما يدعوه كتّاب العهد الجديد «ملكوت اللّه» الذي، بحسب بولس الرسول: «**ليس أكلاً وشرباً، بل هو برّ وسلام وفرح في الروح القدس**» (رو١٤: ١٧). وثمر هذه الشجرة، الذي هو ثمر الروح القدس، ثمر روح الحقّ، هو «***محبّة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمان***» (**غلا ٥: ٢٢-٢٣**). إنّها اختبار فعليّ لمعرفة الله، إنّها حكمة وفهم، وضوح وعمق، معرفة الخير ولا الشرّ. لأنّ المعرفة في المعنى الكتابيّ تعني دائماً «خبرة أو اختباراً»: تذوّق والمس، تناول واشترك[2].

«طوبى للرجل الذي يجد الحكمة
والرجل الذي ينال الفهم...
طرقها طرق نِعَم، وكلّ مسالكها سلام،
هي شجرة حياة لمسكيها، والمتمسّك بها مغبوط» (أمثال ٣: ١٣؛ ١٧-١٨).
«***ثمر الصّدّيق شجرة حياة، ورابح النفوس ضعيف***» (**أمثال ١١: ٣٠**).

عندما وُلد المسيح غُرست شجرة الحياة على الأرض، وأزهرت من عذراء في مغارة، فغدا بطن البتول فردوساً روحيّاً. ودُعي كلّ أولاد آدم

---

(١) انظر تك ٣: ٦.

(٢) يستخدم الكتاب المقدّس كلمة «معرفة» بمعنى الاتصال الجنسيّ بين الرجل والمرأة؛ مثال «فعرف آدم امرأته حوّاء فحبلت» (تك ٤: ١). هذا يشير إلى الفهم الشركويّ والاختباريّ لـ«المعرفة» التي هي أي شيء إلا التجريديّ والنظريّ.

وحوّاء المائتين للأكل من ثمرها، ثمر الروح القدس الذي يعطيه يسوع. واشتركوا جميعهم في الحياة الأبديّة التي جلبها لهم المسيح. هذا ما يقوله روح الله للكنائس: «من يغلب فسأعطيه أن يأكل من شجرة الحياة التي في وسط فردوس الله». هذا هو وعد يسوع في كتاب الرؤيا:

«وها أنا آتي سريعاً وأجرتي معي لأجازي كلّ واحد كما يكون عمله. أنا الألف والياء، البداية والنهاية، الأوّل والآخر. طوبى للذين يصنعون وصاياه لكي يكون سلطانهم على شجرة الحياة، ويدخلوا من الأبواب إلى المدينة. لأنّ خارجاً الكلاب والسَحَرة والزناة والقتلة وعبدة الأوثان، وكلّ من يحبّ ويطيع كذباً.

أنا يسوع أرسلت ملاكي لأشهد لكم بهذه الأمور عن الكنائس. أنا أصل وذرّية داود. كوكب الصبح المنير» (رؤ ٢٢: ١٢-١٦).

إنّ جذر نسل داود قد وُلد. وظهرت نجمة الصبح. والمسيح قد أتى، وشجرة الحياة قد أزهرت لكلّ المشتركين.

«تهيّأي يا بيت لحم. لأنّ عدناً قد فُتحت
استعدّي يا أفراثا، لأنّ آدم مع حوّاء قد تجدّدا
فاللعنة قد انتقصت، والخلاص قد أزهر في العالم
ونفوس الصدّيقين تتأهّب مقدّمة التسبيح
عوض الطيب كعريون للقرابين
فتنال خلاص النفس وعدم الفساد
فها إنّ المتكئ في المذود
يدعو إلى إقامة التسبحة الروحيّة
الهاتفين بغير فتور يا ربّ المجد لك»[١].

❖

(١) خدمة غروب يوم ٢٣ كانون الأوّل.

٢٠

مجيئا المسيح الأول والثاني

تعتبر الكنائس التي تتبع التقليد الكاثوليكيّ، في الغرب، أنّ زمن الميلاد (advent) يؤكّد بشدّة على زمن مجيء الربّ الثاني.. وتدعو مؤمنيها، خلال استعدادهم لاستقبال الميلاد، كي ينظروا إلى ما وراء مجيء المخلّص في «*صورة عبد... على شبه الناس*» (في٢: ٧)، إلى مجيئه ثانية في نهاية الدهور بمجد عظيم، لكي يدين الأحياء والأموات في مملكة الله.

بينما يشدّد التقليد الأرثوذكسيّ الشرقيّ على مجيء المسيح الثاني، في ليتورجيا الأيّام الثلاثة الأولى من الأسبوع العظيم المقدّس، قبل ربيع الفصح، فصح موت الربّ وقيامته. ففي خِدَم تلك الأيّام تشير كلّ قراءات الكتاب المقدّس والتراتيل إلى نهاية الألم وإلى دينونة الخليقة التي سيقوم بها الربّ المنتصر الذي يدخل في مجده من طريق الصليب.

خلال الأيام التي تسبق الميلاد، لا تشدّد خِدَم الكنيسة كثيراً على العلاقة بين مجيء ابن الله الأوّل كعبد متألّم، كحمل الله الذي يحمل بنفسه خطايا العالم، ومجيئه الثاني كملك منتصر وديّان الكون. ولكن، هذه العلاقة تتضمّن، بالفعل، كلّ الترانيم والتراتيل والتلاوات الإنجيليّة. فنقرأ نبوءات العهد القديم في خِدَم الساعات والغروب والسحر في اليوم الذي يسبق الميلاد. خصوصاً تلك التي تبشّر، بوضوح، بالعصر المسيحانيّ الذي حقّقه المسيح بولادته، والذي سيظهره بقوّة، فقط، في

نهاية التاريخ. وآيات عديدة من التي تُرتَل خلال هذا الزمن تشير مباشرة إلى العلاقة المتبادلة بين مجيئي السيّد.

«إنّ المسيح قد أوصى العارفين
الذين يترجّون حضوره
أن يسهروا فإنّه يأتي ليولد من البتول».

«أيّها المسيح،
أظهرني في مجيئك الثاني
مساكناً لأغنامك التي عن اليمين
أنا المكرِّم حضورك بالجسد».

«أيّها المسيح،
إنّك في حضورك الأوّل خلّصت آدم
ففي حضورك الثاني
خلّص الذين يكرّمون ميلادك»[1].

تشير ترانيم الأيّام السابقة للميلاد، خصوصاً القوانين، إلى ترانيم خِدَم الأسبوع العظيم. ففي كثير منها، تُستبدل مواضيع الفصح بمواضيع الميلاد (الفصح الشتويّ)، بتغيير عدد قليل من الكلمات في كلّ مقطع[2]. لهذا فإنّ نوعاً من «تواصل ثلاثيّ» يظهر تأثيره في هذه الخِدَم. ميلاد المسيح مع ظهوره (المعموديّة) في الأردن، يشيران إلى آلامه وقيامته، التي تشير بدورها إلى مجيئه الثاني في نهاية الأزمنة. في هذا التواصل الثلاثيّ يوضع سرّ المسيح بكامله أمام المؤمنين من أجل التأمّل فيه والشركة معه.

---

(١) الأودية ٩ من قانون صلاة النوم ليوم ٢١ كانون الأوّل.

(٢) انظر المقالة الأولى.

وُلد يسوع من أجل أن يموت. بالحقيقة، وحده فقط ابن الله، من بين كلّ الكائنات البشريّة التي عاشت على الأرض، من دخل العالم من أجل هذا الهدف. أتى ليموت لكي نحيا فيه وبه. والحياة الأبديّة التي جلبها إلى العالم هي حاضرة وفاعلة في الذين يستقبلونه، وسوف تظهر بملئها وكمالها بطريقة لا يستطيع أحد أن يشكّك بها، أو يتساءل عنها، أو يقاومها، فقط في نهاية الأزمنة. المسيحيّون هم الذين يتذكّرون حقيقة أنّ الله قد زار شعبه في شخص ابنه لكي يُصلَب ويقوم، ويحتفلون بهذه الحقيقة. وهم أيضاً الذين ينتظرون مجيئه، ويؤمنون بأنّ كلّ وعود الله المبرمة بيسوع المسيح وبواسطته سوف تتحقّق في الدهر الآتي. لذلك فهم لا ينتظرون شيئاً هنا، ولا يريدون شيئاً هنا، ويعرفون أنّ ما من شيء سيحصل هنا. فوعد مخلّصهم في هذا الدهر هو وعد اضطهاد ومحن فقط.

«الحق أقول لكم: ليس أحد ترك بيتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو أولاداً أو حقولاً، لأجلي ولأجل الإنجيل، إلا ويأخذ مئة ضعف الآن في هذا الزمان، بيوتاً وإخوة وأخوات وأمهات وأولاداً وحقولاً، مع اضطهادات، وفي الدهر الآتي الحياة الأبديّة. (مر١٠: ٢٩-٣٠)

إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنّه قد أبغضني قبلكم. لو كنتم من العالم لكان العالم يحبّ خاصّته. ولكن لأنّكم لستم من العالم، بل أنا اخترتكم من العالم، لذلك يبغضكم العالم. اذكروا الكلام الذي قلته لكم: ليس عبد أعظم من سيّده. إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم، وإن كانوا قد حفظوا كلامي فسيحفظون كلامكم. (يو١٥: ١٨-٢٠).

هوذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن، تتفرّقون فيها كلّ واحد إلى خاصّته، وتتركوني وحدي. وأنا لست وحدي لأنّ الآب معي. قد كلّمتكم بهذا ليكون لكم فيّ سلام. في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا: أنا قد غلبت العالم» (يو ١٦: ٣٢-٣٣).

يعيش المسيحيّون بين مجيئي المسيح. يتذكّرون مجيئه الأوّل ليصير ذبيحة. ويتوقّعون مجيئه الثاني ليملك. هذا مصوّر في أبنية الكنيسة الأرثوذكسيّة. مثالاً على ذلك، تعلّق على الأيقونسطاس صورة السيّدة والدة الإله مع الطفل إلى يسار الباب الملوكيّ وصورة السيّد المسيح إلى اليمين. قد يظنّ البعض أنّها مجرّد صور لمريم ويسوع. لكنّها ليست كذلك، فالأيقونات التي أمام المذبح هي صور مجيئي المسيح.

فمريم ليست وحدها في أيقونتها، إنّها تحمل المسيح الذي لا يبدو طفلاً، بل ابن الله المتجسّد «*اخذاً صورة عبد... على شبه الناس*» (في٢: ٧). هذه هي أيقونة المجيء الأوّل للمسيح. والأيقونة على اليمين ليست صورة يسوع كما كان على الأرض. بل صورته في المجد كملك وسيّد، إنّها أيقونة المجيء الثاني.

يندمج مجيء المسيح الأوّل ومجيئه الثاني سويّة في الفكر والفعل والصلاة المسيحيّة على مدى الأزمان، ولا يمكن فصلهما. فإذا فُصلا ينتفي الإيمان المسيحيّ وكذلك الحياة والعبادة المسيحيّتان. المجيء الأوّل بدون الثاني تراجيديا بدون معنى. والمجيء الثاني بدون الأول استحالة منافية للعقل. ولد يسوع ليجلب ملكوت الله. مات ليبرهن ملوكيّته. قام ليؤسّس ملكه. وسوف يأتي ثانية بمجد ليشارك شعبه بهذا الملكوت. في مملكة الله ليس هناك حكّام وتابعون. الكلّ يحكمهم المسيح القائم. أتى ويأتي من أجل هذا الهدف فقط.

«لقد شغفتني بعشقك الإلهيّ
أيّها المسيح وحوّلتني
فاحرق جراثيم خطيئتي
أنا غير المستحقّ لأمتلئ من النعيم الذي فيك
وأعظم حضورك الإلهيّ»[1].

(١) من صلاة المطالبسيّ (قبل المناولة) في كتاب الصوات الأرثوذكسيّ. كتبها القدّيس يوحنّا الدمشقيّ، وتوجد في قانون سَحَر عيد التجلّي الثاني، ٦ آب، الأودية ٩، الطروباريّة ٣.

٢١

لنفرح باستضافة السيّد

الأودية الأخيرة من قانون السَحَر ليوم الخميس العظيم المقدّس، والتي ترتّل في قدّاس ذلك اليوم أيضاً، هي ذاتها الأودية الأخيرة من قانون صلاة النوم لليوم الثالث قبل الميلاد.

«هلمّ أيّها المؤمنون
لنتمتّع بوليمة سيّديّة
ومائدة غير مائتة
في مكان عليّة
متعلّمين بعقول سامية
أقوالاً فائقة من الكلمة الذي إياه نعظّم».

الطروباريّات التي تلي ترتيل هذه الأودية، هي تماماً، مثل تلك التي ترتّل في تذكار العشاء السرّيّ للربّ يوم الخميس العظيم. وتعاد ههنا، في الميلاد، ولكن بتعديلات طفيفة لتتناسب والاحتفال بميلاد السيّد.

«إنّ هيرودس الرديء توقّد غيظاً
وقال لمجوس الحكماء
أمضوا وافحصوا عن الملك المولود الآن
وإذا وجدتموه أعلموني
لأنّه بعزم فاتك كان مضمراً قتله
فارثِ لنفوسنا أيّها المسيح الإله وخلّصنا».

«لا يكوننّ أحد عادم الشكر
ولا حسوداً شرّيراً
من الذين يقدّمون الآن لله قرابين مقبولة
أعني عرفَ الفضائل عوضاً عن الذهب واللبان والمر
مرتّلين للمسيح المولود
ارثِ لنفوسنا أيّها المسيح الإله وخلصنا»[١].

تشرح هذه النصوص، على غرار باقي نصوص زمن الميلاد الليتورجيّة الأخرى، هويّة يسوع المسيح وغاية مجيئه إلينا. إنّه ابن الله الأزليّ. حكمة الله وقوّته وكلمته غير المخلوقة[٢]، إنّه خالق الكلّ، الذي به وفيه ولأجله خُلقت كلّ الأشياء[٣]. صار إنساناً بدون أيّ تغيير في ألوهيّته. وبقي إلهاً، لأنّه بالحقيقة، من المستحيل أن يوقف ألوهيته، وصار كائناً بشريّاً: يسوع الناصريّ. لذا فهو «شخص واحد في طبيعتين» على حدّ تعبير الكنيسة عبر عصور من الجدال المؤلم.

كابن الله الوحيد المولود، يسوع المسيح شخص إلهيّ بطبيعة إلهيّة من الله الآب ذاته. وكما تقول الترتيلة صار إنساناً حقيقيّاً «بالجوهر وليس بالتخيّل»[٤]. لهذا هو، بحسب التحديد العقائديّ لمجمع خلقيدونية، المعروف عند الأرثوذكس بالمجمع المسكونيّ الرابع، إله حقّاً وإنسان حقّاً. ما من انفصال أو انقسام أبداً ومن أيّ نوع بين لاهوته وناسوته. وما من اختلاط بين «طبيعتين» مختلفتين جذريّاً، ولا تغيّر لأيّ واحدة منهما

---

(١) خدمة صلاة النوم ليوم ٢٣ كانون الأوّل.
(٢) انظر يو ١: ١؛ ١ كو١: ٢٤.
(٣) انظر يو ١: ٢-٣؛ عب ١: ٢-٣؛ ١ كو ٨:٦؛ كول ١: ١٥-٢٠.
(٤) تذكر هذه الجملة بتعليم بعض المسيحيّين الأوائل الكاذب الذي يقول إنّ المسيح لم يكن إنساناً حقيقيّاً وإنّما اتخذ مظهر إنسان. دُعيت تلك الهرطقة بـ «الدوسيتيّة» نسبة للكلمة اليونانيّة «بيه» أو «يظهر».

مهما كان أساسيّاً. إنّه إلهيّ بطبيعة إلهيّة كالتي للآب والروح القدس. وهو إنسان بطبيعة أي إنسان عاش وسيعيش على هذه الأرض[١].

إنّها لطريقة مدهشة أن نعبّر عن سبب إرسال الله ابنه الوحيد إلى العالم كإنسان بالقول إنّه أتى لكي «يمتّعنا بوليمة سيّديّة» بالاشتراك في «مائدة غير مائتة». لقد ظهر الربّ على الأرض لكي «يقيم مائدة» في برّيّة هذا العالم لكي يغذّينا بالخبز الحيّ، الخبز الذي ينزل من السماء، خبز الحياة الذي هو المسيح نفسه. لقد أتى ليغذّينا بجسده هو ودمه هو.

«فقال لهم يسوع: أنا هو خبز الحياة. من يقبل إليّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً. ولكنّي قلت لكم: إنّكم قد رأيتموني، ولستم تؤمنون. كلّ ما يعطيني الآب فإليّ يُقبل، ومن يُقبل إليّ لا أخرجه خارجاً. لأنّي قد نزلت من السماء، ليس لأعمل مشيئتي، بل مشيئة الذي أرسلني. وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني: أن كلّ ما أعطاني لا أتلف منه شيئاً، بل أقيمه في اليوم الأخير. لأنّ هذه هي مشيئة الذي أرسلني: أنّ كلّ من يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبديّة، وأنا أقيمه في اليوم الأخير.

....

أنا هو الخبز الحيّ الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم.

....

---

(١) يقول تحديد المجمع المسكونيّ الرابع العقائديّ إنّ يسوع المسيح «إله كامل وإنسان كامل». كائن «من الجوهر ذاته الذي للآب بما يخصّ ألوهته» و«من الجوهر ذاته الذي للإنسان بما يخصّ بشريّته». ويصف «الاتحاد» بين لاهوت المسيح وناسوته بـ «الاتحاد الأقنوميّ» في «شخص» أو «أقنوم» ابن الله. ويحدّد كيف أنّ هذا «الاتحاد» يحدث باستعمال أربع صفات سلبيّة: بغير انفصال، بغير اختلاط، بغير تشوّش

فقال لهم يسوع: الحقّ الحقّ أقول لكم: إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم. من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبديّة، وأنا أقيمه في اليوم الأخير، لأنّ جسدي مأكل حقّ ودمي مشرب حقّ. من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه. كما أرسلني الآب الحيّ، وأنا حيّ بالآب، فمن يأكلني فهو يحيا بي. هذا هو الخبز الذي نزل من السماء. ليس كما أكل آباؤكم المنّ وماتوا. من يأكل هذا الخبز فإنّه يحيا إلى الأبد». (يو ٦: ٣٥-٤٠؛ ٥١؛ ٥٣-٥٨)

يصف الكتاب المقدّس مملكة الله التي يحقّقها الماسيّا بالوليمة. ويشبّهها يسوع نفسه في بعض من أمثاله بعشاء احتفاليّ[١]. ويخبر تلاميذه في عشاء الفصح الأخير أنّهم سوف يجلسون على مائدة، يأكلون ويشربون في ملكوت الله.

«أنتم الذين ثبتّم معي في تجاربي. وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً، لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي، وتجلسوا على كراسٍ تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر». (لو ٢٢: ٢٨-٣٠)[٢].

يذكر القدّيس يوحنّا في سفر الرؤيا تعليم الربّ هذا ويؤكده. فهو يخبر عن «عشاء عرس الحمل» الذي يتحقّق في نهاية الأزمنة، ويسمّى المدعوّون إلى ضيافة الله هذه مباركين.

«وسمعت كصوت جمع كثير، وكصوت مياه كثيرة، وكصوت رعود شديدة قائلة: هللويا»! فإنّه قد ملك الربّ الإله القادر على كلّ شيء. لنفرح ونتهلّل ونعطه المجد! لأنّ عرس الخروف قد جاء، وامرأته هيّأت

(١) أنظر، كمثال، مت ٢٢: ١-١٣؛ ٢٥: ١-١٣؛ لو ١٤: ١-٢٤؛ ١٥: ١١-٣٢.

(٢) انظر أيضاً مت ٨: ١١-١٢.

نفسها. وأُعطيت أن تلبس برّاً نقيّاً بهيّاً، لأنّ البرّ هو تبرّرات القدّيسين.

وقال لي: «أكتب: طوبى للمدعويّن إلى عشاء عرس الخروف!».
وقال: «هذه هي أقوال الله الصادقة». (رؤ ١٩: ٦-٩)

❖

٢٢

ماذا نقدّم لك أيّها المسيح

لا تتكلّم ليتورجيا الميلاد على زيارة ابن الله لنا فقط، إنّما تخبرنا عن الضيافة التي يرجو أن يجدها عندنا عندما يأتي. فتراتيل الميلاد تدعو المؤمنين لكي يرحّبوا بابن الله، لكي يقبلوه، لكي يصافحوه، لكي يذهبوا إلى لقائه.

«إنّ الذي طأطأ السماوات
وحلّ في البتول
يأتي ليولد بالجسد في مغارة بيت لحم كما كُتب
والمانح الحياة للأطفال في الرحم
يُشاهَد طفلاً
فلنستقبله جميعنا بقلوب مستقيمة فرحين»[١].

ليس البشر الذين خلقوا، على صورة الله ومثاله، هم فقط المدعوّون لاستقبال مجيء الربّ إلى العالم الذي خلقه، بل كلّ خلائق الله مدعوّة لتشارك في استقبال سيّدها. تبشّر الليتورجيا بأنّ كلّ الخليقة تشترك بالضرورة في تجسّد ربّها، وبدون هذا الاشتراك الفعليّ والمجّانيّ، ما أتى السيّد.

تجسّد ابن الله جهد مشترك. إنّه تعاون بين الخالق وخليقته. إنّه مؤازرة بين الله الآب والابن والروح القدس من جهة وكلّ الملائكة

(١) خدمة سَحَر يوم ٢٠ كانون الأوّل.

والحيوانات والعناصر من جهة أخرى، مع البشر في المركز كوسطاء رئيسيّين بين السماء والأرض الذين من أجلهم صُنع العالم وأعطي لهم. ما كان مجيء ابن الله ليتمّ، ما كان تجسّد الكلمة الإله، ما كانت ولادة يسوع لو لم يشترك في هذا الحدث كلّ شخص وكلّ شيء بفرح وامتنان. وهذا ليس صحيحاً فقط «ماديّاً» في التاريخ، بل صحيح أيضاً «روحيّاً» في حياتنا.

تقول إحدى التراتيل المحبوبة من الأرثوذكس في غروب ليلة الميلاد. ويستمتع بها المؤمنون الممارسون ويفرحون، ويشعرون أنّ الخلائق كلّها تشارك في مجيء المسيح. تقول الترتيلة:

«ماذا نقدّم لك أيّها المسيح
لأنّك ظهرت على الأرض كإنسان لأجلنا
فكلّ فرد من المخلوقات التي أبدعتها يقدّم لك شكراً
فالملائكة التسبيح
والسماوات الكوكب
والمجوس الهدايا
والرعاة التعجّب
والأرض المغارة
والقفر المذود
وأمّا نحن فأمّاً بتولاً
فيا أيّها الإله الذي قبل الدهور ارحمنا»[1].

كم هو رائع أن نتأمّل في تعاون السماويّ والأرضيّ من أجل مجيء الربّ. وكم هو بالغ الدلالة والمعنى أن نرى نحن البشر ما يجب أن

(١) خدمة غروب عيد الميلاد. ٢٤ كانون الأوّل.

نقدّمه. لقد أعطينا أمّاً أرضيّة بدونها ما كان ابن الله ليولد كإنسان. هذه هي عقيدة الكنيسة.

تعلّم الكنيسة الأرثوذكسيّة أنّه من غير المعقول ومن الكفر بمكان، أن نقول إنّه كان باستطاعة الله أن يختار أية امرأة لتكون أمّاً لابنه، بدون، وحتّى ضدّ، قبولها الحرّ الاختياريّ. ومن بالغ السوء أن نفكّر بأنّه «اختار مجرّد بطن» لكي يولد ابنه منه «كما تعبر قطرة الماء الأنبوب»، على ما ادّعى بعض الهراطقة في الكنيسة الأولى بغيرة خاطئة في دفاعهم عن سيادة الله وقوّته، عن الله الذي «يفعل ما يريده». من الأفضل أن نعتبر أنّ مجد المخلوقات الأعظم يتمّ بتقديمها الشكر لله بطريقة ملائمة لوجودها بواسطة تهيئة أوضاعها لكي يصير الله ذاته واحداً منها. ما كان الفتية الثلاثة في أتون بابل عارفين جيّداً مقدار مجد المخلوقات في العصر المسيحانيّ المقبل عندما دعوا إلى مباركة الربّ وتسبيحه وتمجيده إلى مدى الدهور[١]. وما كان أيّ ولد لآدم وحوّاء قادراً على أن يفهم إلا قليلاً مقدار مجد الكائنات البشريّة الذي سيتمّ عندما ستُدعى امرأة «حوّاء الجديدة» وستصير، بولادتها إنساناً هو ابن الله الإله، بالحقيقة «والدة الإله»[٢].

أيضاً وأيضاً ستكرّر تراتيل الميلاد، وكذلك تراتيل الظهور الإلهيّ إنّما بقوّة أكثر، هذا الموضوع بطرائق متنوّعة. كلّ الخليقة تشترك في ظهور الربّ على الأرض. وكلّ الخليقة تشترك في التقديس الخلاصيّ الذي جلبه.

---

(١) دا ٣: ٥٧-٩٠.

(٢) انظر المقالة ٢١. تدعى مريم منذ العصر المسيحيّ المبكر «حوّاء الجديدة». فالقدّيس إيريناوس أسقف ليون المتوفّى حوالي ٢٠٠ب. م يدعو مريم، في كتاباته، «حوّاء الجديدة» لأنّها سمعت بشارة الملاك وأطاعت الله الذي أرسله، لذلك صارت «والدة الإله»، وحقاً «أمّ كلّ الأحياء». (انظر تك ٣: ٢٠).

«إنّ الكوكب يسبق فيشرق في المغارة
فيا أيّها الرعاة هلمّوا مع الملائكة
ويا أيّها المجوس تهيّأوا لكي تدركوه بالهدايا.

يا بيت لحم ضمّخي بالطيب المذود المقدّس
لأنّ السيّد يبسط عليك أشعّة لاهوته»[١].

«رنّموا يا قبائل الأمم تسبيحاً ومجداً
ويا رعاة اسهروا
ويا أيّها المجوس بادروا بالهدايا بنشاط».

«أيّتها الجبال والآكام
والأودية والبقاع والأنهار
والخليقة بأسرها
عظّمي الآن الخالق مولوداً»[٢].

«لنذخر الأعمال الصالحة في خزانة النفوس
حتّى إنّنا بطلعة بهيّة
نرتل للمسيح المولود هاتفين
يا أعمال الربّ باركوا الربّ»[٣].

❖

(١) خدمة سَحَر يوم ٢١ كانون الأوّل.
(٢) خدمة غروب يوم ٢٢ كانون الأوّل.
(٣) خدمة صلاة النوم ليوم ٢١ كانون الأوّل.

٢٣

الفرح العظيم

يبشّر ميلاد المسيح العالم بفرح عظيم. يأتي رئيس الملائكة جبرائيل إلى زخريّا الكاهن أوّلاً، بينما كان هذا الأخير يقدّم البخور على مذبح الله، ويخبره أنّ زوجته أليصابات ستحبل وتلد ابناً يكون سابق المسيح. **«ويكون لك فرح وابتهاج، وكثيرون سيفرحون بولادته»** (لو١: ١٤).

ويعود رسول الربّ نفسه إلى العذراء مريم فيبلغها الرسالة ذاتها، فتعظِّم نفس العذراء الربّ وتبتهج روحها بالله مخلّصها (لو١: ٤٦-٤٧). لأنّ ابنها سيكون المسيح و«يُدعى ابن العليّ»، وسيعطيه الربّ الإله «بيت يعقوب إلى الأبد، ولن يكون لملكه نهاية» (لو١: ٣٢-٣٣). ويذيع ملاك الربّ بشرى الولادة للعالم قائلاً: **«أبشّركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب» (لو ٢: ١٠).**

«وكان في تلك الكورة رعاة متبدّين يحرسون حراسات الليل على رعيّتهم، وإذا ملاك الربّ وقف بهم، ومجد الربّ أضاء حولهم، فخافوا خوفاً عظيماً. فقال لهم الملاك: «لا تخافوا! فها أنا أبشّركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب: أنّه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلّص هو المسيح الربّ. وهذه هي العلامة: تجدون طفلاً مقمّطاً مضجعاً في مذود». وظهر بغتةً مع الملاك جمهور من الجند السماويّ مسبّحين الله وقائلين: المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرّة» (لو٢: ٨-١٤).

فـرح ظـهور المسيح جليّ فـي خـدم فصـح الشـتاء الليتورجيّـة، عندمـا تترجَم كلمة «السلام لكِ» بكلمة «افرحـي» كمـا فـي خـدم الكنيسـة كلّها. فهذا يعني أنّه يوجد حضور أعظم «للبشارة السارّة بالفرح العظيم» لكلّ المؤمنين، لأنّهم مع، كلّ الخليقة، تلقّوا تحيّة السـلام أيضـاً وأيضـاً وفـي تراتيل العيد نسبّح قائلين:

«لتبتهج قلوب الأرضيّين كافّة
ولتفرح الخليقة
فإنّ الربّ يولد في مغارة بيت لحم من فتاة نقيّة
والمجوس يقدّمون له الآن هدايا لائقة
أيّها الشعب الجالس منذ القديم في ظلال الموت
انظر النور الشارق لك من البتول
وامتلئ فرحاً جزيلاً معظّماً على الدوام الكلمة المتمسكن»[1].

«إنّ الأرض قد بسطت وجهها،
لتتقبّل الخالق،
المتقبّل التمجيد من الملائكة،
والكوكب من السماء،
والتسبيح من الرعاة،
والهدايا من المجوس،
والمعرفة من العالم أجمع»

«لتبتهج الخليقة،
لأنّ الخالق والإله الذي قبل الأزل،
يُعرف الآن جديداً،
فليستقبله المجوس بالهدايا،

---

(١) خدمة صلاة النوم ليوم ٢٤ كانون الأوّل.

وليهتف الرعاة مذيعين العجب بإيمان،
ولتفرح البشر مع الملائكة»[(١)].

إحدى الاتهامات التي تُوجّه إلى المسيحيّين هي تهمة انتفاء الفرح منهم. المسيحيّون الذين لا فرح فيهم لا يمكن أن يُسمّوا مسيحيّين. فأصحاب القلوب القاسية والمتذمّرون والجاحدون والمتّهمون واليائسون وغير الراضين ليسوا مسيحيّين بالتأكيد. هؤلاء لم تلمس النعمة حياتهم. إنّهم أناس محدودون «بهذا العالم» ومكتفون به، ورئيسهم تالياً هو الشيطان و«**هيئتهم إلى زوال**» (**يو١٢: ٣١؛ ١ كو ٧: ٣١**). ولا يمكن أن يكونوا في عداد المنتمين إلى المسيح وملكوت الله. لأنّ المسيحيّين تعريفاً هم الذين «*فرح المسيح كاملاً فيهم* » (يو ١٧: ١٣). إنّهم أناس لا يمكن لأحد أن ينزع فرحهم منهم، لأنّه كامل وثابت فيهم (يو١١:٥؛ ١٦: ٣٢، ٤٥).

في كتاب «من أجل حياة العالم»، يتكلّم الأب ألكسندر شميمن على فرح المسيحيّين، فيقول في المطلع:

«ومع ذلك، كانت المسيحيّة، منذ البدء، إعلاناً عن الفرح الوحيد الممكن على الأرض. إنّ كلّ فرح، اعتدنا اعتباره ممكناً، بيّنت لنا المسيحيّة أنّه غير ممكن. لكن، ومن قلب هذه الاستحالة، من قعر هذه الظلمة، بشّرت المسيحيّة بفرح جديد شامل، فحوّلت النهاية إلى بداءة. من غير الممكن فهم المسيحيّة من دون إعلان هذا الفرح. وبما أنّ الكنيسة هي فرح، فرح وحسب، انتصرت في العالم، لكنّها خسرت العالم عندما خسرت ذلك الفرح، عندما كفّت عن الشهادة، بثقة، لذلك الفرح. إنّ أفظع اتهام يوجّه إلى المسيحيّين، هو ذاك الذي صدر عن نيتشه حين قال إنّ المسيحيّين لا يعرفون الفرح»[(٢)].

---

(١) خدمة صلاة السَحَر ليوم ٢٤ كانون الأوّل.

(٢) «من أجل حياة العالم»، الأب ألكسندر شميمن، تعريب الأرشمندريت توما (بيطار)، منشورات النور ١٩٩٤، ص ٣٥-٣٦.

ويتابع الأب ألكسندر ليقول إنّه يجب على المسيحيّين أن «يستعيدوا معنى هذا الفرح العظيم» قبل أن يتعاطوا مع أيّ من «المناقشات التقنيّة بشأن الكنيسة وخدمة الرسوليّة وأساليبها». ويقول: إنّ الفرح لا يمكن تحديده ولا تحليله. الفرح ندخل إليه. «**أدخل إلى فرح ربك**» (مت ٢٥: ٢١). وندخل هذا الفرح، هذا الفرح الوافر العظيم، بدخولنا حياة الكنيسة الليتورجيّة والأفخارستيّا. وهنا، وهنا فقط يستطيع المرء، كما في احتفال الميلاد والظهور، أن يشارك في هذا الفرح الحاصل الذي خُلق العالم منذ البدء من أجله.

«هلّموا نبتهج بالربّ
مذيعين السرّ الحاضر
فإنّه قد زال سياج الحائط المتوسّط
والحربة اللهيبيّة تنقلب راجعة
والشيروبيم تُبيح عود الحياة
أمّا أنا فأعود إلى التمتّع بنعيم الفردوس
الذي نفيت منه قبلاً بسبب المعصية
لأنّ صورة الآب وشخص أزليّته
المستحيل أن يكون متغيّراً
قد اتّخذ صورة عبد آتياً من أمّ لم تعرف زواجاً
خلواً من استحالة
حيث لبث كما كان
إلهاً حقيقيّاً
واتّخذ ما لم يكن
إذ صار إنساناً لأجل محبّته للبشر
فلنهتف نحوه صارخين

يا من وُلد من البتول اللهمّ ارحمنا»[1].

«اليوم الملائكة أجمعون،
يتباشرون في السماء ويبتهجون،
وتتهلّل الخليقة بأسرها،
لأجل الربّ المخلّص المولود في بيت لحم،
فإنّ ضلالة الأصنام كلّها قد بطلت،
والمسيح يملك إلى الدهور»[2].

❖

(١) خدمة غروب بارامون العيد.
(٢) خدمة غروب بارامون العيد الليتين).

٢٤

على الأرض السلام، وفي الناس المسرّة

عندما بشّر ملاك الربّ الرعاة «بفرح عظيم» بميلاد المسيح، ظهر معه «جمهور من الجند السماويّ مسبّحين الله وقائلين: المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرّة» (لو٢: ١٣-١٤). وقد أدخل المسيحيّون في الشرق والغرب هذه الترنيمة الملائكيّة في صلواتهم، كما ردّدتها أفواه المؤمنين على مرّ العصور.

«المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام
اليوم بيت لحم تتقبّل الجالس مع الآب على الدوام
اليوم الملائكة يمجّدون كما يليق بالله الطفل المولود
هاتفين:
المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرّة»[1].

تقول النسخة الأصليّة للكتاب المقدّس، والتي تأخذ الكنيسة منها استشهاداتها: السلام على الأرض والمسرّة لكلّ البشر. لا تقول السلام على الأرض والمسرّة للناس الصالحين. وهذه النقطة مهمّة لاهوتيّاً.

---

(١) خدمة سَحَر العيد.. يرتّل المؤمنون الأرثوذكس الآية الإنجيليّة «المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرّة» يوميّاً في صلاة السَحَر في بدء الذكصولوجيا. كما تقال يومياً في صلاة السَحَر أيضاً قبل تلاوة المزامير الستة. ويقولها الكاهن سرّاً قبل البدء بالقداس الإلهيّ.

فالتعليم المسيحيّ لا يقول بأنّ الله، يعطي سلامه ومسرّته لكلّ الناس وذلك بابنه المسيح – الماسيّا[1].

يدشّن مجيء المسيح «عهد سلام» نهائيّاً وأبديّاً. ذلك العهد الذي أنبأ به أنبياء العهد القديم.

«فإنّ الجبال تزول، والآكام تتزعزع، أمّا إحساني فلا يزول عنكِ، وعهد سلامي لا يتزعزع، قال راحمك الربّ» (أش ٥٤: ١٠).

«أميلوا آذانكم وهلّموا إليّ. إسمعوا فتحيا نفوسكم. وأقطع لكم عهداً أبديّاً، مراحم داود الصادقة» (أش ٥٥: ٣).

«وأقطع لكم عهداً أبديّاً أنّي لا أرجع عنهم لأحسن إليهم، وأجعل مخافتي في قلوبهم فلا يحيدون عنّي وأفرح بهم لأحسن إليهم، وأغرسهم في هذه الأرض بالأمانة بكلّ قلبي وكلّ نفسي» (أر٣٢: ٤٠-٤١).

«وأقطع معهم عهد سلام، فيكون معهم عهداً مؤبّداً، وأقرّهم وأكثّرهم وأجعل مقدسي في وسطهم إلى الأبد. ويكون مسكني فوقهم، وأكون لهم إلهاً ويكونون لي شعباً. فتعلم الأمم أنّي أنا الربّ مقدّس إسرائيل، إذ يكون مقدسي في وسطهم إلى الأبد» (حز٣٧: ٢٦-٢٨).

سلام الله الذي يعطيه يسوع للعالم ليس سلاماً عالميّاً. إنّه، كما تقول الليتورجيا الأرثوذكسيّة في الطلبة السلاميّة الكبرى، «السلام الذي من العُلى»[2]. وقد أشار الربّ إلى هذا السلام بشكل خاصّ، عندما قال

---

(١) تترجم كلمة المسرّة أحياناً بـ «المتعة الصالحة»، وهو معنى متطابق مع الكلمة اليونانيّة الأصليّة «إفدوكيا». التي غالباً ما يستخدمها اللاهوت الأرثوذكسيّ كصفة مرادفة لعمل الله الحرّ والطوعيّ. نقول، مثلاً، إنّ الله خلق العالم وخلّصه بإرادته الصالحة (بمسرّته).

(٢) السلام كلمة أساسيّة crucial في الليتورجيا المسيحيّة. فتحية «السلام لجميعكم» توجّه إلى المؤمنين عند كلّ مفصل أساس في القدّاس الإلهيّ. وكلّ العبادات الليتورجيّة الكنسيّة تبدأ باستدعاء هذا السلام: «بسلام إلى الربّ نطلب... من أجل السلام الذي من العلى وخلاص نفوسنا إلى الربّ نطلب... من أجل سلام كلّ العالم وثبات كنائس الله المقدّسة واتحاد الجميع إلى الربّ نطلب...».

لتلاميذه قبل آلامه: «**سلاماً أترك لكم. سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا**» (يو ١٤: ٢٧). كم هو محزن أنّ أناساً كثيرين، ومنهم مسيحيّون كثر، ما يزالون حتّى اليوم لا يفهمون هذا السلام. وكم يُتّهم الوعّاظ المسيحيّون بعدم صحّة كلامهم، عندما يبشّرون كلّ سنة في عيد الميلاد بالسلام الذي جلبه يسوع للعالم منذ ألفي عام، بينما ما تزال الحروب والعداوة بين الناس قائمة حتّى اليوم.

بالحقيقة، لم يَعِد يسوع المسيح أبداً بالسلام على الأرض بمعنى أنّ الشعوب لن تتحارب مع بعضها البعض، وأنّ الأفراد لن يتخاصموا من بعد. سلام كهذا وعدنا به المسيح في نهاية الأزمنة فقط عندما يأتي بمجده لكي يؤسّس مملكة الله أبيه. آنئذ وفقط آنئذ، سوف يسود السلام العظيم الأبديّ، سلام الربّ الذي أنبأ الأنبياء بتحقيقه.[1] وحتّى ذاك الزمان، سيبقى الصراع والنزاع. ويسوع نفسه، كما سبق فقال، سيكون سبباً رئيساً فيه.

«**لا تظنّوا أنّي جئت لألقي سلاماً على الأرض. ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً. فإنّي جئت لأفرّق الإنسان ضدّ أبيه، والابنة ضدّ أمّها، والكنّة ضدّ حماتها. وأعداء الإنسان أهل بيته. من أحبّ أباً أو أمّاً أكثر منّي فلا يستحقّني، ومن أحب ابناً أو ابنةً أكثر منّي فلا يستحقّني، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقّني. من وجد حياته يضيّعها، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها**» (مت ١٠: ٣٤-٣٩).

لقد شهد القدّيسون المسيحيّون عبر الأجيال أنّ سلام الله قد دخل العالم في يسوع، لأنّهم حصلوا على هذا السلام وعاشوا فيه بقيّة حياتهم. بمعنى حقيقيّ، سلام الله هو كلّ ما على المسيحيّين أن يقدّموه للعالم، الذي ببرّ الله وفرحه في الروح القدس، تتحقّق مملكة الله (أنظر

(١) انظر أش ٩: ٦-٧؛ ٥٤-٥٧، ميخا ٤-٥؛ حز ٣٤-٣٧.

رو ١٤ : ١٧). «اقتنِ سلام الله وسوف يخلص آلاف من حولك» يقول القدّيس سيرافيم ساروف. بدون هذا السلام الإلهيّ، مهما كانت أفعال الإنسان ورسالته، فلن ينتج منها ما هو إلهيّ وأبديّ ولن يدوم.

لكنّ القدّيسين المسيحيّين سبّبوا عداوة ونزاعاً أيضاً. فوجودهم يفضح الشرّ، ويسبّب صراعاً. لقد شهدوا لحقيقة كلمات يسوع. فكما كان هو مكروهاً ومضطَهداً، هكذا أيضاً أتباعه المؤمنون سوف يُقبض عليهم، ويُسجنون، ويُعذّبون ويُقتلون... ليس فقط من قبل الذين يكرهونه وأباه علانية، بل من قبل الذين يعتقدون أنّهم بارتكابهم الجريمة «*يقدمون خدمة لله*» (يو ١٦ : ٢).

«*إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنّه قد أبغضني قبلكم. لو كنتم من العالم لكان العالم يحبّ خاصّته. ولكن لأنّكم لستم من العالم، بل أنا اخترتكم من العالم، لذلك يبغضكم العالم. أذكروا الكلام الذي قلته لكم: ليس عبد أفضل من سيّده. إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم، وإن كانوا قد حفظوا كلامي فسيحفظون كلامكم. لكنّهم إنّما يفعلون بكم هذا كلّه من أجل اسمي، لأنّهم لا يعرفون الذي أرسلني*» (يو ١٥ : ١٨-٢١).

ولا تختلف الأمور اليوم عمّا كانت عليه سابقاً. قد تكون الأوضاع الخارجيّة تبدّلت، لكن الروحيّة باقية كما هي. المسيح جلب سلام الله والمسرّة للعالم، جلب مملكة الله، أمّا الصراع فيستمرّ إلى أن تتوطّد هذه المملكة بقوّة في نهاية الأزمنة.

«اليوم السماء والأرض قد اتّحدتا بولادة المسيح
اليوم الإله على الأرض ظهر
والإنسان إلى السماوات صعد
اليوم غير المنظور بحسب طبيعته

يُشاهد بالجسد لأجل الإنسان
لذلك فلنهتف نحوه بالتماجيد صارخين
المجد لله في الأعالي
وعلى الأرض السلام
الذي أتانا به حضورك
يا مخلّصنا المجد لك».

«إنّني اليوم أسمع في بيت لحم
من العادمي الأجساد
المجد في الأعالي لله
الذي سُرّ أن يكون السلام على الأرض
الآن البتول هي أرحب من السماوات
لأنّه منها أشرق نور للذين في الظلام
فرفع المتواضعين المرتّلين ترتيلاً ملائكيّاً
المجد لله في الأعالي»[1].

❖

(١) خدمة غروب لعيد «الليتين».

٢٥

الله معنا

تبدأ سهرانة الميلاد والظهور الإلهيّ بصلاة النوم الكبرى التي نرّتل فيها مقتطفات من كتابات النبيّ أشعياء.

«معنا هو الله فاعلموا أيّها الأمم وانهزموا،
إسمعوا إلى أقاصي الأرض،
أيّها الأقوياء انغلبوا،
لأنّكم وإن قويتم فستنغلبون أيضاً،
وأيّ رأي افتكرتم به يلاشيه الربّ،
وأيّ قول قلتموه لا يثبُت فيكم،
أمّا خوفكم فلا نتّقيه ولا نتزعزع له،
والربّ إلهنا، فهو الذي نقدّسه ويكون لنا خوفاً،
وإن كنت عليه متوكّلاً كان هو لي تقديساً،
فسأكون عليه معوّلاً فأخلُص به،
هاءنذا والأولاد الذين أعطانيهم الله،
إنّ الشعب السالك في الظلمة قد أبصر نوراً عظيماً،
أيّها السكان في بلد الموت وظلمته، نورٌ يشرق عليكم،
لأنّه قد وُلد لنا صبيّ وأبناً أُعطينا،
وهو الذي رئاسته على عاتقه،
وسلامه ليس له حدّ،

ويُدعى اسمه رسول الرأي العظيم،
مشيراً عجيباً،
إلهاً قوياً مسلّطاً رئيس السلام،
آب الدهر الآتي».

(أش ٨: ٩-١٠، ١٧-١٨؛ ٩: ٢، ٦-٧ الترجمة السبعينيّة)

هذه الكلمات النبويّة، التي تتردّد في كثير من تراتيل فصح الشتاء، تشير إلى ما يقوله إنجيل متّى مباشرة.

«أمّا ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا: لمّا كانت مريم أمّه مخطوبة ليوسف، قبل أن يجتمعا، وُجدت حبُلى من الروح القدس. فيوسف رجلها إذ كان بارّاً، ولم يشأ أن يُشهرها، أراد تخليتها سرّاً. ولكن فيما هو متفكّر في هذه الأمور، إذا ملاك الربّ قد ظهر له في حلم قائلاً: «يا يوسف ابن داود، لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك. لأنّ الذي حبُل به فيها هو من الروح القدس. فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع. لأنّه يخلّص شعبه من خطاياهم». وهذا كلّه كان لكي يتمّ ما قيل من الربّ بالنبيّ القائل: «هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً، ويدعون اسمه عمّانوئيل» الذي تفسيره الله معنا.

فلمّا استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الربّ، وأخذ امرأته. ولم يعرفها حتّى ولدت ابنها البكر. ودعا اسمه يسوع».

مرّةً، سمعت إحدى السيدات المهتديات إلى الأرثوذكسيّة في أميركا هذه الترتيلة في سهرانة الميلاد، باللغة الإنكليزيّة. فغضبت جدّاً وأتت إلى الكاهن، بعد الصلاة، تعاتبه بغضب: «كيف ترتّل الكنيسة ترتيلة كهذه؟». وعندما سألها الكاهن: «أيّة ترتيلة تقصدين؟». أجابته «لأنّ الله معنا». اندهش لأنّ هذه المرأة كانت عضواً في الكنيسة الأرثوذكسيّة منذ زمن، فكيف لم تسمع هذه الترتيلة إلا اليوم! بالحقيقة

كانت قد سمعتها مرّات كثيرة إنّما ليس بلغتها فلم تفهمها جيداً. وكانت صدمتها قويّة عندما سمعتها بلغتها الإنكليزيّة وفهمت كلماتها فتساءلت كيف يكون «الله معنا» وكيف ندعو الناس ليفهموا هذا وينهزموا. فاعتبرت أنّ الأرثوذكس مغرورون ومتعالون لأنّهم يعتبرون أنّ الله معهم ولأنّهم يطالبون الأمم الأخرى بقبول هذا الأمر والاستسلام له. طبعاً كانت المرأة مخطئة جدّاً في تفسيرها. إلا أنّ موقفاً كهذا شائع جدّاً في أميركا الشماليّة حيث لا تدّعي أيّة كنيسة بروتستانتيّة إنّها أصحّ من الكنائس الإنجيليّة، الأخرى وأكثر أصالة منها (عدد الطوائف الإنجيليّة يربو على خمسة وعشرين ألفاً) وحيث يُعتبر الخضوع والانهزام مرفوضين بأيّ شكل.

لا تعني كلمات النبيّ أشعياء أنّ الله حاضر مع مجموعة محدّدة من البشر دون أخرى. بل أنّ الله مع كلّ الناس في المسيح الآتي والموعود به. وكتابات النبيّ نفسه توضح هذا التعليم. كما أنّ آيات الإنجيل وكتابات الرسل في العهد الجديد تؤيّد هذا التفسير بكلّ وضوح.

«هوذا عبدي الذي أعضده.
مختاري الذي سُرّت به نفسي.
وضعتُ روحي عليه فيُخرج الحقّ للأمم.
لا يصيح ولا يرفع ولا يُسمع في الشارع صوته.
قصبةً مرضوضةً لا يقصف، وفتيلةً خامدةً لا يُطفئ.
إلى الأمان يُخرج الحقّ.
لا يكلّ ولا ينكسر حتّى يضع الحقّ في الأرض، وتنتظر الجزائر شريعته.
هكذا يقول الله الربّ خالق السماوات وناشرها، باسط الأرض ونتائجها،
معطي الشعب عليها نسمة، والساكنين فيها روحاً:
أنا الربّ قد دعوتكَ بالبرّ.

فأمسكُ بيدكَ وأحفظكَ وأجعلكَ عهداً للشعب ونورصا للأمم،
لتفتح عيون العمي، لتُخرج من الحبس المأسورين،
من بيت السجن الجالسين في الظلمة».

«أنا الرّبّ هذا اسمي، ومجدي لا أعطيه لآخر، ولا تسبيحي للمنحوتات.
هوذا الأوّليّات قد أتت، والحديثات أنا مُخبر بها. قبل أن تنبت أُعلِمكم بها» (أش ٤٢: ١-٩).

يسوع هو عبد الله المختار. إنّه وحده الممسوح بروح الله. كلمة المسيح (ماسيّا) تعني «الممسوح». إنّه نور الأمم. فيه رجاء كلّ الشعوب[1]. لأنّه، كما يقول الربّ بأشعياء النبيّ، في آية استشهد بها بولس الرسول: «أصفيتُ إلى الذين لم يسألوا. وُجدت من الذين لم يطلبوني. قلتُ: هاءنذا، هاءنذا. لأمّةٍ لم تُسَمَّ باسمي» (اش ٦٥: ١؛ رو١٠: ٢٠-٢١).

عندما يظهر المسيح على الأرض، يكون الله حقّاً معنا، معنا كلّنا؛ ليس مع اليهود فقط إذا مع الأمم، ليس مع المسيحيّين الأرثوذكسيّين ومع المسيحيّين عموماً فقط بل مع كلّ الناس، بمن فيهم الذين لا يسألونه ولا يطلبونه.. الشعوب والأمم كلّها مدعوة كي تفهم هذا وتخضع له، ليس من أجل الله بل من أجلها هي. حضور الله شرف للشعوب وليس ازدراءً بها. هو كرامة لها وليس خزياً. هو حرّيّتها لا عبوديّتها. هو حياتها الحقّ.

«كلّ شيء قد دُفع إليّ من أبي، وليس أحد يعرف الابنَ إلا الآبُ، ولا أحد يعرف الآبَ إلا الابنُ ومن أراد الابنُ أن يُعلن له. تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال، وأنا أُريحكم. احملوا نيري عليكم

---

(١) أنظر مت ٤: ١٥-١٦، ١٢: ١٨-٢١؛ لو ٢: ٢٩-٣٢، ٣: ٤-٦؛ ٤: ١٨-١٩.

وتعلّموا منّي، لأنّي وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحةً لنفوسكم. لأنّ نيري هيّن وحملي خفيف» (مت ١١: ٢٧-٣٠).

هذه هي رسالة الفصح الشتويّ. الله معنا على الأرض. إنّه في وسطنا في شخص يسوع، الذي اسمه عمّانوئيل (الله معنا). لقد كشف طبيعته غير المعروفة، التي لا تُدرَك، التي لا تُوصَف، التي لا تُرى، بطريقة ملموسة جداً، ولد كصبيّ من أجلنا، وأُعطي لنا كابنٍ. فلنفهم هذا ونقبله ففيه الفرح الأعظم والمجد الأكمل.

«اليوم البتول تلد الفائق الجوهر
والأرض تقرِّب المغارة لمن هو غير مقتَرَبٍ منه
الملائكة مع الرعاة يمجّدون
والمجوس مع الكوكب، في الطريق يسيرون
لأنّه قد وُلد من أجلنا صبيّ جديد
الإله الذي قبل الدهور[1]».

❖

(١) قنداق عيد الميلاد.

٢٦

«شمس البرّ»

هو أحد ألقاب السيد المسيح، في كتابات الأنبياء في الكتاب المقدّس، ويرد في كتاب النبيّ ملاخي ما يلي:

«فهوذا يأتي اليوم المتّقد كالتنّور، وكلّ المستكبرين وكلّ فاعلي الشرّ يكونون قشّاً، ويحرقهم اليوم الآتي، قال ربّ الجنود، فلا يُبقي لهم أصلاً ولا فرعاً. ولكم أيّها المتّقون اسمي تشرق شمس البرّ والشفاء في أجنحتها، فتخرجون وتنشأون كعجول الصيرة. وتدوسون الأشرار لأنّهم يكونون رماداً تحت بطون أقدامكم يوم أفعل هذا، قال ربّ الجنود» (ملا ٤: ١-٣).

ويُدعى الله نفسه شمساً في الكتاب المقدّس (انظر مزمور ٨٤: ١١). كمصدر النور، وهو النور ذاته، يعطي الله اللقب ذاته لابنه الوحيد المولود الذي يظهر على الأرض كفجر ليوم جديد، يوم الربّ الذي ينير الذين يجلسون في الظلمة وفي أرض الموت (انظر أش ٩: ٢، ٤٢: ٧٦). توجد شهادة بليغة لهذا التعليم في إنجيل لوقا، في نشيد زخريّا والد يوحنّا المعمدان:

«وأنت أيّها الصبيّ نبيّ العليّ تُدعى، لأنّك تتقدّم أمام وجه الربّ لتعدّ طرقه. لتعطي شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم، بأحشاء رحمة إلهنا التي بها افتقدنا المشرق من العلاء. ليضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت، لكي يهدي أقدامنا في طريق السلام» (لو ١: ٧٦-٧٩).

تعني الترجمة الحرفيّة أنّ «المشرق من العلاء» سوف يزورنا في العالم، مشيرة إلى يسوع المسيح. تستخدم ترتيلة الميلاد الرئيسة هذا التعبير ولسبب تاريخيّ محض. فلم يكن حدث ولادة الربّ يسوع بالجسد موضع عيد مستقلّ في بدء المسيحيّة، والعيد الأساس كان عيد الظهور الإلهيّ، كما كان يُدعى «عيد الأنوار» أيضاً. وارتبط بعيد يهوديّ موسميّ وبعيد وثنيّ يقام في زمن محدّد من السنة، حينما تتوقّف الشمس عن مدارها الجنوبيّ، وتبدأ بالتحرّك ثانية باتجاه الشمال، رامزة إلى انتصار النور على الظلام في النظام الطبيعيّ. سمّى المسيحيّون هذا العيد «إبيفاني» أي ما معناه بالعربيّة «ظهور» أو «إظهار» وأيضاً سمّوه «ثيوفاني» أي «الظهور الإلهيّ» أو «الإظهار الإلهيّ»، وكان يقع في السادس من كانون الثاني.[1] وأعطي هذا الاسم لأنّ الله ظهر على الأرض في شخص ابنه، وأظهر مجده فيه أيضاً وقد دعا الابن نفسه «**نور العالم**».

ثم كلّمهم يسوع أيضاً قائلاً: «**أنا نور العالم . من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة**». (يو٨: ١٢)

«**ما دمت في العالم فأنا نور العالم** » (يو ٩: ٥).

«**أنا قد جئت نوراً إلى العالم ، حتّى كلّ من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة**» (يو ١٢: ٤٦)

تتجاوب كلمات الرسول يوحنّا هذه مع مقدّمة إنجيله حيث يتماهى يسوع بكلمة الله الإلهيّة، تماهياً يُستخدم مرّات كثيرة في خدم فصح الشتاء الليتورجيّة.

---

(١) ما زالت الكنيسة الأرمنيّة حتّى اليوم، تعيّد لمجيء الربّ يسوع في السادس من كانون الثاني. يجب أن نميّز هذا العيد عند الكنيسة الأرمنيّة عن عيد ميلاد المسيح الذي تقيمه بعض الكنائس الأرثوذكسيّة (كالروسيّة مثلاً) في السابع من كانون الثاني. بالواقع السابع من كانون الثاني بحسب التقويم المسمّى في بلادنا شرقيّاً، يقابل الخامس والعشرين من كانون الأوّل بحسب التقويم الذي عدّل في القرن السادس عشر ويسمّى عندنا غربيّاً.

«في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كلّ شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء ممّا كان. فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس. والنور يضيء في الظلمة، والظلمة لم تدركه.

كان إنسان مرسل من الله اسمه يوحنّا. هذا جاء للشهادة ليشهد للنور، لكي يؤمن الكلّ بواسطته. لم يكن هو النور، بل ليشهد للنور. كان النور الحقيقيّ الذي ينير كلّ إنسان آتياً إلى العالم. كان في العالم وكُوِّن العالم به، ولم يعرفه العالم. إلى خاصّته جاء، وخاصّته لم تقبله. أمّا كلّ الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه. الذين وُلدوا ليس من دم، ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بل من الله.

والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا، ورأينا مجده، مجداً كما لوحيد من الآب، مملوءاً نعمة وحقّاً». (يو ١: ١-١٤)

الاحتفال بعيد ميلاد المسيح كعيد منفصل عن الاحتفال العامّ لظهوره على الأرض، (الذي كان يتضمّن كلّ وجوه مجيئه، من ولادته إلى ظهوره العلنيّ في معموديّته في نهر الأردن) بدأ فعليّاً في الكنيسة المسيحيّة، أولاً في الغرب ولاحقاً في الشرق، لإبدال العيد الوثنيّ (عيد الشمس) بـ «ميلاد الشمس غير المنظورة». كان الوثنيّون يحتفلون بهذا العيد في الخامس والعشرين من شهر كانون الأوّل. وكان عيداً دينيّاً عند عابدي الأجرام السماويّة، وبخاصّة الشمس. وعندما تحرّر الوثنيّون من هذه العبادة وتباركوا بعبادة الله الحقّ كمسيحيّين، كان من الطبيعيّ أن تستبدل الكنيسة هذا الاحتفال الخاطئ الاحتفال الحقّ، فأعطت معنى حقيقيّاً لليوم الذي كان معتبراً مهمّاً في حياة الكثيرين من المؤمنين الجدد. وواضح أنّ الطروباريّة الرئيسة في عيد ميلاد المسيح في الكنيسة الشرقيّة قد وضعت كردّ واضح على الوثنيّة، بإظهار حقيقة أنّ الذين كانوا يعبدون

النجوم بما فيها الشمس، تعلّموا من النجم (نجم المجوس) أن يعبدوا الشمس الحقّ، ابن الله، الذي يعطي، وهو بذاته، النور.

«ميلادك أيّها المسيح إلهنا،
قد أشرق نور المعرفة في العالم
لأنّ الساجدين للكواكب
به تعلّموا من الكوكب السجود لك
يا شمس العدل
وأن يعرفوا أنّك من مشارق العلوّ أتيت
يا ربّ المجد لك»[1].

البعض يخطّىء الكنيسة لأنّها حدّدت عيد ميلاد المسيح في يوم عيد «ميلاد الشمس». هؤلاء يعارضون حتّى الاحتفال بالعيد. بينما تؤمن الكنيسة بأنّه كان عملاً بإلهام الروح القدس. لقد أرسل الله ابنه إلى العالم من أجل تقديسه وخلاصه. أتى المسيح «ليس ليدين العالم» بل «ليخلّص العالم» (يو٣: ١٧). لأنّه، كما يقول بولس الرسول: «لأنّ الله الذي قال: «أن يشرق نور من ظلمة»، هو الذي أشرق في قلوبنا، لإنارة معرفة مجد الله في وجه المسيح يسوع» (٢ كو ٤: ٦).

«إنّ التي لن تعرف زواجاً
لمّا كانت حاملة المسيح هتفت
يا ابني كيف أحجبك في الأقمطة
أم كيف أرضعك أيّها المغذّي الطبيعة كلّها

---

(١) طروباريّة عيد الميلاد. تستعمل كلمة «المشرق» للدلالة على المسيح وترد في ترتيلة أرثوذكسيّة شعبيّة ترنّم في عدد من المناسبات. لكنّها معروفة بالأكثر في خدمة الإكليل: «يا إشعيا اطرب متهلّلاً، لأنّ البتول قد حبلت في أحشائها وولدت ابناً عمّانوئيل إلهاً وإنساناً معاً، الذي يُسمّى المشرق، فلذلك نعّظمه ونطّوب البتول».

أم كيف أحملك بيديّ أيّها الضابط البرايا بأسرها
أم كيف أحدّق إليك يا من لا يتجاسر الكثيرو الأعين على النظر إليه»[١].

«لقد أشرقت من البتول أيّها المسيح
شمس العدل العقليّة
ودلّ عليك نجم أيّها غير الموسوع أنّك موسوع في مغارة
فأرشد المجوس إلى السجود لك
فمعهم نعظّمك أيّها المعطي الحياة المجد لك»[٢].

«لقد افتقدنا مخلّصنا من العلى
من مشرق المشارق
فنحن الذين في الظلمة والظلال
قد وجدنا الحقّ
لأنّ الربّ قد وُلد من البتول»[٣].

❖

(١) خدمة سَحَر يوم ٢٤ كانون الأوّل. انظر رؤ ٢١ : ٢٣-٢٥. «والمدينة لا تحتاج إلى الشمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها، لأنّ مجد الله قد أنارها، والخروف سراجها. وتمشي شعوب المخلّصين بنورها، وملوك الأرض يجيئون بمجدهم وكرامتهم إليها. وأبوابه لن تُغلق نهاراً، لأنّ ليلاً لا يكون هناك...»

(٢) خدمة غروب عيد الميلاد.

(٣) خدمة سَحَر عيد الميلاد.

٢٧

مريم البتوليّة الدائمة

تعلّمنا الأناجيل، وتخبرنا الليتورجيا، أنّ يسوع المسيح وُلد على الأرض من العذراء مريم. الروح القدس الذي يمنحه الله للمؤمنين يهبهم «**فكر المسيح**» (انظر ١ كو ٢)، وهو يعرّفهم إلى الأمور الروحيّة. يعرّفهم أنّ يسوع ابن الله، أنّ الله أبوه منذ الأزل. إذا كان من شيء فريد، وأصيل، لم يسبق له مثيل قطّ في الكتاب المقدّس، وغير قابل للنكران بالمطلق حول تعليم يسوع نفسه، فهو أنّه هو، وفقط هو، الذي يستطيع أن يدعو الله الفائق السموّ، أباً، إنّه يناديه هكذا في صفحات الإنجيل حوالى مائتي مرّة.

الله هو أبو يسوع. لذا لا يمكن أن يكون له أب بشريّ. من الواجب أن يولد من عذراء. القدّيس متى يرى في ولادته من عذراء تحقيقاً لكلمات النبيّ أشعياء: «**هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً، ويدعون اسمه عمّانوئيل» الذي تفسيره: الله معنا**» (مت ١: ٢٣؛ أش ٧: ١٤). مع أنّ الباحثين يتجادلون حول كلمة «عذراء» الواردة في النصّ، ويقولون إنّها تعني أيضاً «صبيّة»، فإنّه من الواضح أنّ الكلمة اليونانيّة التي يستعملها الإنجيليّ، كما يبدو أيضاً من سياق روايته الكاملة، تعني حرفيّاً عذراء لم يكن لها علاقة جنسيّة مع رجل[1].

---

(١) لا يرى البعض في كلمات النبيّ أشعياء إشارة إلى ولادة المسيح، وإنّما إلى حدَث تمّ زمن النبيّ. لكنّ التفسير المسيحيّ الكلاسيكيّ طالما نظر إلى هذه الكلمات وإلى صور نبويّة أخرى وإلى حوادث تاريخيّة كثيرة على أنّها «صور مسبقة» ستجد تحقيقها كاملاً في يسوع المسيح وستأخذ ملء معناها الجديد في العصر المسيانيّ. من الجميل أن نلاحظ أنّ كلمة النبيّ أشعياء للملك آحاز «الربّ نفسه سيعطيك آية» قد صوّرها التقليد الأيقونوغرافيّ الأرثوذكسيّ في أيقونة للعذراء مريم، تدعى «والدة الإله الآية». وهي تصوّر العذراء باسطة يديها في وضعيّة صلاة والمسيح الطفل معها.

مع أنّه توجد اختلافات بين روايتي الطفولة في إنجيلي متّى ولوقا، إلا أنّه ما من اختلاف حول كلّ ما يتعلّق بولادة يسوع من عذراء. وفي رواية القدّيس لوقا الذي يورد تفاصيل أكثر في إنجيله، تسأل مريم الملاك مباشرة عن كيفيّة حدوث الولادة قائلة: «**وأنا لست أعرف رجلاً**» (لو ١: ٣٤). وكلّنا يعرف جواب الملاك: «**الروح القدس يحلّ عليكِ، وقوّة العليّ تظلّلكِ، فلذلك أيضاً القدّوس المولود منكِ يُدعى ابن الله**» (لو١: ٣٥).

يقول تقليد الكنيسة إنّ القدّيس لوقا أخذ قصّة ولادة يسوع من مريم نفسها، ناظراً في عبارته، «**وكانت أمّه تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها**»، كإشارة واضحة جدّاً إلى مصدر معلوماته (لو٢: ٥١). لكن مهما يكن الحال، فإنّ تعليمه دامغ. المسيح ابن الله وليس له أب بشريّ (انظر لو٣: ٢٣).

«لقد تمّ! اليوم عجب مستغرَب
ذلك أنّ بتولاً تلد
والمستودع لم يدخل عليه فساد
الكلمة يتجسّد
ومن الآب لم ينفصل
الملائكة مع الرعاة يمجّدون
ونحن معهم نهتف صارخين
المجد لله في الأعالي
وعلى الأرض السلام»[1].

---

(١) خدمة غروب عيد الميلاد. جدير بالذكر أنّ استخدام عبارات مثل «بدون فساد» أو «من دون زرع» في سياق الحديث عن حبل العذراء مريم بالمسيح وولادتها إيّاه إنّما للدلالة على «حقيقية» الحدث وأنّه ليس حدثاً «معنوياً». النقطة هنا هي أنّ ولادة المسيح تمّت بطريقة عجائبيّة، أبقت على بتوليّة مريم. أمر انفتاح بطن مريم لا مساومة فيه لأنّ الإنجيل يذكره (لو٢: ٢٣). وأيقونة الميلاد تصوّر القابلة وهي تغسل الطفل المولود. ترفض الكنيسة أي محاولة لإنكار حقيقة ولادة المسيح بشرياً، كما ترفض أي تقليل من قيمتها أو تصغير لها. لقد دافع المجمع المسكونيّ الرابع بشدّة عن هذا الأمر. راجع المقال ٢١.

«لمَ تتعجبين يا مريم
ولماذا تنذهلين في داخلكِ
فتجيب قائلة: لأنّي ولدت في زمن ابناً غير محدود في زمن
ولم أدرك كيفيّة الحبل بالمولود
إنّني لم أعرف رجلاً
فكيف ألد ابناً
فمن ذا الذي رأى قطّ ولادة خلواً من زرع
لكن حيث يشاء الإله
يُغلَب نظام الطبيعة كما كتب
المسيح وُلد من البتول
في بيت لحم اليهوديّة»[١].

يقول تعليم الكنيسة، متّبعاً الكتاب المقدّس، إنّ مريم ظلّت عذراء بقيّة حياتها، ولم تعرف رجلاً. ولم يكن لها أولاد قط إلى جانب الربّ يسوع. وأكرّر أنّ هذه العقيدة ليست مؤسّسة فقط على الكتاب المقدّس، وإنّما فهمتها الكنيسة كحقيقة لاهوتيّة ملهَمة بالروح القدس. حقيقة يفهمها بشكل جليّ الذين لهم «فكر المسيح»[٢].

لا يذكر الكتاب المقدّس أبداً أنّ مريم لها أولاد إلا يسوع. لا يوجد نصّ واحد يشير، ولو من بعيد، إلى شيء كهذا. أمّا عن «إخوة وأخوات» يسوع المذكورين في الإنجيل، فلا توجد عبارة واحدة تفيد أنّهم أولاد مريم. التفسير التقليديّ منذ الزمن الأوّل للكنيسة أنّهم إمّا أنسباء يسوع

---

(١) خدمة سَحَر الميلاد.

(٢) عبارة القدّيس الإنجيليّ متّى «ولم يعرفها حتّى ولدت ابنها البكر» عبارة ساميّة لا تفيد أنّه قد عرفها أبداً بعد ولادتها المسيح. يذكر القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم وهو من أنطاكية أمثلة مصطلحات ساميّة عديدة أخرى وردت في الكتاب المقدّس توضح هذه النقطة. انظر تفسيره لإنجيل متّى، العظة الخامسة، ٥-٦.

أو أولاد يوسف من زواجه السابق[1]. ومن المعلوم أنّ يوسف كان يكبر العذراء بكثير، وأنّه مات قبل أن يبدأ يسوع بشارته. وعندما كان يسوع على الصليب، سلّم أمه إلى تلميذه يوحنّا الحبيب، وهذا فعل يستحيل القيام به لو كان له «إخوة» من مريم. (يو ١٩: ٢٦-٢٧).

البيّنة الروحيّة والمعنى السرّانيّ (الصوفيّ) لبتوليّة والدة الإله قد شهدت عليهما الكنيسة كعقيدة في المجمع المسكونيّ الخامس، المنعقد في العام ٥٥٣، وهي تتكرّر دونما نهاية في العبادة الكنسيّة الليتورجيّة. وتملأ عقول المؤمنين وقلوبهم. فمن غير المستوعَب عند القدّيسين أنّ المرأة التي حبلت من الروح القدس وولدت ابن الله الإلهيّ، كلمته وحكمته، صورته وشعاع مجده، يمكن أن تتابع حياتها بشكل عاديّ كأمّ تنجب أولاداً بالطريقة المعتادة. ليست القضيّة في الإنجاب هنا، وبالتأكيد ليست احتقاراً للاتحاد الجسدانيّ[2]. بل بالأكثر هي فهم واضح لفرادة مريم، الوحيدة «المبَارَكة بين النساء» التي «تطوّبها جميع الأجيال». المعطاة للكنيسة صورةً حيّةً لجميع الذين يُخلّصون لأنّهم «**يسمعون كلمة الله ويحفظونها**» (لو ١: ٤٢، ٤٨؛ ١١: ٢٨). مكانة مريم في مخطط الله الخلاصي تؤكّد بتوليّتها أكثر من أيّ نصّ كتابيّ أو أي مرجع مقدّس عند الذين يعرفونها في حياة الكنيسة السرّانيّة (الصوفيّة).

«ها إنّ العذراء قد حبلت
في الحشا كما قال النبيّ قديماً
فولدت إلهاً متأنّساً
ولبثت بتولاً

---

(١) لا تخفي الكنيسة حقيقة إخوة المسيح، وتسمّي القدّيس يعقوب «أخا الربّ» وتحتفل بعيده في الأحد الذي يلي الميلاد.

(٢) انظر المقال ٩.

فإذ إنّنا نحن الخطأة قد تصالحنا
بواسطتها مع الله
فلنسبّحها بإيمان بما أنّها والدة الإله بالحقيقة»[١].

«إنّ الذي لا يسعه الكلّ
كيف وُسع في الحشا
والذي هو في أحضان الآب
كيف يُحمَل على ساعدي أمّ
فقد تمّ ذلك جميعه
كما علم وكما شاء وكما سُرَّ هو
لأنّه وهو منزّه عن الجسد
قد تجسّد باختياره
والذي هو كائن
قد صار من أجلنا إلى ما لم يكن
وقد شاركنا في طينتنا
ولم ينفصل عن جوهره
المسيح وُلد بطبيعتين
مريداً أن يتمّم العالم العلويّ»[٢].

«إنّ الذي وُلد من الآب
قبل كوكب الصبح خلوّاً من أمّ
اليوم تجسّد منكِ على الأرض
خلوّاً من أب

---

(١) خدمة سَحَر الميلاد.

(٢) خدمة سَحَر الميلاد. وترتّل ثانية في سَحر اليوم الثالث للميلاد، في عيد القدّيس استفانوس.

لأجل هذا كوكب يبشّر المجوس
وملائكة مع رعاة يسبّحون
مولدكِ الطاهر أيّتها الممتلئة نعمة»[١].

❖

(١) قنداق اليوم الثاني للميلاد، عيد جامع لوالدة الإله، وقد كتبه القدّيس رومانوس المرنّم.

٢٨

ذهب ولبان ومرّ

يعتبر سجود المجوس، حكماء المشرق، جزءاً من احتفال الميلاد في الكنيسة الأرثوذكسيّة[1]. أيّاً كانت ظروف الحادثة التاريخيّة والفعليّة، والتقليد الأرثوذكسيّ يقبلها حرفيّاً، يكتسب المغزى اللاهوتيّ والروحيّ، لمجيء الملوك بهداياهم، أهمّيّة فائقة.

رأينا، سابقاً، كيف أنّ الكنيسة تشدّد على حقيقة أنّ نظام الطبيعة بكامله يشترك في إذاعة خبر ميلاد المسيح، كاشفاً عن نفسه كخليقة الله. لأجل هذا تقول طروباريّة العيد «**الساجدين للكواكب به تعلّموا من الكوكب..**» السجود ليسوع كربّ.

«أيّها السيّد يا من أشرق كوكباً من يعقوب
لقد ملأت فرحاً المنجّمين الحكماء المتلقّفين أقوال بلعام العرّاف قديماً
المتقدّمين إليك كباكورة للأمم فتقبّلتهم علانية
مقدّمين لك هدايا مقبولة»

«لقد بطلت الضلالة الفارسيّة
لأنّ ملوك المشارق الراصدين الكواكب
يقدّمون هدايا للمسيح ملك الكلّ المولود
ذهباً ومرّاً مع لبان

---

(١) يقع عيد الظهور عند الغرب المسيحيّ في اليوم الثاني عشر للميلاد ويتمحور حول سجود المجوس. أمّا في الشرق فيتمركز على معموديّة الربّ يسوع في نهر الأردن.

فيا فتيان باركوه ويا كهنة سبّحوه
ويا شعوب زيدوه رفعة مدى الدهور»[١].

يشهد مجيء الحكماء لحقيقة مجيء يسوع ملكاً وربّاً لكلّ الشعوب، وليس لليهود فقط. في أشخاص ملوك فارس، ترى الكنيسة كلّ شعوب الأرض وكلّ ممالك البشر.

«إنّ ابنة بابل قد اجتذبت إليها أبناء داود
أسرى من صهيون
فبعث أبناؤها المجوس حاملين هدايا
ليخدموا ابنة داود المتقبّلة الإله
لذلك فلنسبّح مترنّمين وقائلين
لتبارك الخليقة بأسرها الربّ
ولتزده رفعة مدى الدهور»[٢].

«إنّ المجوس ملوك فارس لما عرفوا جليّاً
الملك السماويّ مولوداً على الأرض
انقادوا من كوكب ساطع
فبلغوا إلى بيت لحم مقدّمين هدايا منتخبة
ذهباً ولباناً ومرّاً
وخرّوا ساجدين لأنّهم أبصروا المنزّه عن زمن
طفلاً موضوعاً في مغارة»[٣]

«لتبتهج الخليقة لأنّ الخالق والإله قبل الأزل
يُعرَف الآن جديداً

---

(١) خدمة سَحَر يوم ٢٤ كانون الأوّل.
(٢) خدمة سَحَر عيد الميلاد.
(٣) خدمة غروب عيد الميلاد.

فليستقبله المجوس بالهدايا
وليهتف الرعاة مذيعين العجب بإيمان
ولتفرح البشر مع الملائكة»[1].

هدايا المجوس ذات دلالة خاصّة مميّزة، وفسّرت رمزيّاً في ليتورجيا العيد. فالذهب علامة أنّ يسوع ملك إسرائيل وكلّ الكون، كما أنّه ملك ملكوت الله الآتي. هذا يشكّل جزءاً حاسماً من قصّة الميلاد في الأناجيل. وسبّب هذا الأمر لهيرودس أن يقتل «**جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كلّ تخومها، من ابن سنتين فما دون، بحسب الزمان الذي تحقّقه من المجوس**» (مت٢: ١٦).

«**ولمّا وُلد يسوع في بيت لحم اليهوديّة في أيّام هيرودس الملك، إذا مجوس من المشرق قد جاؤوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود؟ فإنّنا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له. فلمّا سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه. فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب. وسألهم: «أين يولد المسيح؟» فقالوا له: في بيت لحم اليهوديّة. لأنّه هكذا مكتوب بالنبيّ: وأنت يا بيت لحم، أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا، لأنّ منك يخرج مدبّر يرعى شعبي إسرائيل**» (مت ٢: ١-٦).

أمّا اللبان (البخور) فيشير إلى حقيقة أنّ يسوع هو الله، لأنّ البخور يستخدم في العبادة ويقدّم لله المعبود فقط.

بينما يشير المرّ إلى ربوبيّة يسوع الآتي لكي يموت كذبيحة تامّة من أجل البشر. لأنّ الأموات كانوا يُمسحون بالمرّ، كما مسح يسوع نفسه، بحسب الإنجيل، زمن موته. (يو١٩: ٣٩-٤٠).

---

(١) خدمة سَحَر يوم ٢٤ كانون الأوّل.

لذلك تحتوي هدايا المجوس كلّ أسرار المسيح الآتي. وتشير إلى غاية ظهوره على الأرض. إنّه الملك القدير، ابن داود، الذي لن يكون لمملكته انقضاء. هو ضحيّة، حمل الله، الذي يزيل موته خطايا العالم. وهو الله نفسه، ابن الآب الله: «نور من نور، إله حقّ من إله حقّ، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر (له الجوهر ذاته الذي للآب)، الذي به كان كلّ شي، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء...» كما يقول دستور الإيمان.

التأمل في المجوس وهداياهم هو جزء مكمّل وأخير من احتفال الكنيسة في فصح الربّ الشتويّ.

«إنّ ملوك الأمم لّما حملوا الهدايا كبواكير لك
يا من وُلدت في مغارة بيت لحم
من أمّ لم تعرف نفاساً
أشاروا بالمرّ إلى المائت
وبالذهب إلى عزّة الملك
وباللبان إلى سمو اللاهوت»[1]

«لّما وُلد الربّ يسوع في بيت لحم اليهوديّة
أتى مجوس من المشارق
فسجدوا له إلهاً متأنّساً
وفتحوا كنوزهم بنشاط
وقدّموا له هدايا كريمة
ذهباً خالصاً

---

(١) خدمة سَحَر يوم ٢٤ كانون الأوّل.

بما أنّه ملك الدهور
ولباناً لأنّه إله الكلّ
وكمائت ذي ثلاثة أيّام قدّموا مرّاً للفاقد الموت
فهلّموا يا جميع الأمم لنسجد للذي وُلد ليخلّص نفوسنا»[1].

❖

(١) خدمة غروب يوم ٢٤ كانون الأول.

٢٩

دم الشهداء

تخصّص الكنيسة الأرثوذكسيّة اليوم الذي يلي الميلاد، أي السادس والعشرين من كانون الأوّل، لوالدة الإله. وتعتبره عيداً جامعاً لوالدة الإله الفائقة القداسة. تكرّم الكنيسة في هذا اليوم التي بواسطتها أتى المخلّص. فكلّ الخليقة تدين للربّ من أجل فدائها، لكنّ الربّ نفسه يدين لمريم التي، بكلام بشريّ، بنعمة الروح القدس، جعلت مجيئه ممكناً[١].

كما أنّ الأيّام الثلاثة التالية للعيد تخصّص لتذكار الذين قُتلوا من أجل المسيح. ففي اليوم الأوّل نحتفل بتذكار الأوّل في شهداء المسيحيّة القدّيس استفانوس. وتقول ترتيلة عيده: إنّ اضطهاد المسيحيّين وموتهم نتيجة مجيء المسيح أمر لا مهرب منه. لقد أتى يسوع ليموت من أجل حقيقة الله، التي تتحقّق فعليّاً بكمالها في بذل الإنسان حياته من أجل أن يحيا آخرون. وفي هذا الفعل يكمن تعبير المحبّة الأكثر مشابهة لله والممكن للمخلوقات. تلاميذ المسيح تبعوا مثاله ووجدوا فيه فرحهم وملأهم الأعظم. «**وصية جديدة أنا أعطيكم: أن تحبّوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم أنا تحبّون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً. بهذا يعرف الجميع أنّكم تلاميذي: إن كان لكم حبّ بعضاً لبعض**» (يو ١٣: ٣٤-٣٥)

---

(١) الإشادة بموقف مريم المتجاوب بالكلّيّة وقبولها الطوعيّ لمشيئة الله والحبل بالمسيح، يردّده آباء الكنيسة بطرائق متنوّعة وكثيرة.

«كما أحبّني الآب كذلك أحببتكم أنا. اثبتوا في محبّتي. إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبّتي، كما أنّي أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبّته. كلّمتكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم ويكمل فرحكم. هذه هي وصيّتي أن تحبّوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم. ليس لأحد حبّ أعظم من هذا: أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه. أنتم أحبّائي إن فعلتم ما أنا أوصيكم به» (يو١٥: ٩-١٤).

الشهداء أصدقاء المسيح بامتياز. ففي آلامهم، بحسب كلمات بولس الرسول الجريئة، «أتمّوا ما نقص من آلام المسيح لأجل جسده، الذي هو الكنيسة» (كول١: ٢٤). وهذا صحيح تماماً في حالة القدّيس استفانوس، الذي يسجّل سفر أعمال الرسل قصّة استشهاده بالتفصيل. (أنظر: أع٧: ٦).

«إنّ استفانوس قُدّم لملك وسيّد الكلّ
المولود على الأرض
إكليلاً فائق البهاء
ليس مصنوعاً من حجارة كريمة
بل مزهراً من دمائه نفسها
فهلمّوا يا محبّي الشهداء
لنجتنِ أزهار المديح
ونعقدها على هاماتنا
وننشد بالنشائد قائلين:
أيّها المستنير النفس بالحكمة والنعمة
يا أوّل شهداء المسيح الإله
استمدّ لنا السلامة والرحمة العظمى»[1].

---

(١) خدمة غروب عيد القدّيس استفانوس. تعني كلمة «استفانوس» اليونانيّة «الإكليل».

«أمس أقبل السيّد بالجسد إلينا
واليوم العبد بارح الجسد
أمس ولد الملك بالجسد
واليوم العبد يُرجم بالحجارة من أجله
وبها قضى أجله
أعني به استفانوس الإلهيّ أوّل الشهداء»(١).

«إنّ استفانوس لمّا بارح الآن الجسد
قُدّم بمثابة إكليل متنفّس إليك
أيّها الملك الإله الضابط الكلّ
يا من حلّ في الجسد
ولأجلك قد أتمّ جهاده بتشريف»(٢).

أمّا اليوم الثالث، بعد الميلاد، فيخصّص لتذكار شهداء نيقوميديا القدّيسين الذين رفضوا عبادة الإمبراطور الأرضيّ كملك وبقوا أمينين على عبادة ملك السماوات الوحيد. دمهم أيضاً، بحسب القول المسيحيّ القديم، صار بذار الكنيسة.

«إن جند الشهداء الأبطال العشرين ألفاً
أشرقوا مثل كوكب لا يغيب
منيراً بالإيمان قلوب الحسني العبادة وعقولهم
لأنّهم اضطرموا بمحبّة السيّد الإلهيّ
فاقتبلوا بنشاط وارتياح
نهاية مقدّسة بالنار»(٣).

---

(١) قنداق عيد القدّيس استفانوس.
(٢) اكسبوستلاري سَحَر عيد القدّيس استفانوس.
(٣) قنداق عيد شهداء نيقوميديا.

أخيراً، وفي اليوم الرابع، نحتفل بتمجيدٍ «بفصح» الأطفال الأبرياء الذين ذبحهم هيرودس.

«حينئذ لمّا رأى هيرودس أنّ المجوس سخروا به غضب جداً. فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كلّ تخومها، من ابن سنتين فما دون، بحسب الزمان الذي تحقّقه من المجوس. حينئذ تمّ ما قيل بإرمياء النبيّ القائل: صوت سُمع في الرامة، نوح وبكاء وعويل كثير. راحيل تبكي على أولادها ولا تريد أن تتعزّى، لأنّهم ليسوا بموجودين» (مت٢: ١٦-١٨).

يسوع نجا من مذبحة الأولاد برحلة يوسف والعذراء إلى مصر. فقد أنذر الملاك يوسف في الحلم **«قم وخذ الصبيّ وأمّه واهرب إلى مصر، وكن هناك حتّى أقول لك لأنّ هيرودس مزمع أن يطلب الصبيّ ليهلكه»** (مت٢: ١٣).

كان المسيح منبوذاً منذ أيّامه الأولى على الأرض. إذ طارده هيرودس وأخيراً أمسكه بيلاطس الذي ساقه إلى الموت بمعونة قادة شعبه. سبب هذه العداوة المؤدّية إلى الجريمة شرحه المسيح بنفسه عندما قال إنّ **«النور قد جاء إلى العالم، وأحبّ الناس الظلمة أكثر من النور، لأنّ أعمالهم كانت شريرة»** (يو٣: ١٩).

تبدو رحلة يسوع إلى مصر تحقيقاً لنبوءة **«من مصر دعوت ابني»** (مت ٢: ١٥؛ هو١١: ١). كما يرى الإنجيليّ أنّ إقامة يسوع في الناصرة ضروريّة لتحقيق النبوءة **«سيدعى ناصريّاً»** (مت٢: ٢٣). تظهر مصر رمزيّاً عدواً أكبر لإسرائيل، بهذا يظهر كيف أنّ **«خاصّته لم تقبله»** (يو ١: ١١). كما تظهر الناصرة «جليل الأمم» مشيرة ثانيةً إلى حقيقة أنّ الماسيّا سيأتي لكلّ الشعوب.

السؤال المطروح على كلّ المحتفلين بميلاد المسيح يتعلّق بعلاقتهم بالربّ. هل نحن مستعدّون لاستقباله، ولمحبّته كما هو أحبّنا، ولو أدّى بنا حبّه إلى الموت؟ أم نحن من ضمن الذين لا يستقبلونه، معدودين مع الذين يقتلون بكراهيّتهم وإهمالهم قريبنا؟ كما قال تلميذ المسيح الحبيب «من قال إنّه في النور وهو يبغض أخاه، فهو إلى الآن في الظلمة... كلّ من يبغض أخاه فهو قاتل نفس، وأنتم تعلمون أنّ كلّ قاتل نفس ليس له حياة أبديّة ثابتة فيه. بهذا قد عرفنا المحبّة: أنّ ذاك وضع نفسه لأجلنا، فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة» (١ يو ٢: ٩؛ ٣: ١٥-١٦).

«لمّا ولد يسوع في بيت لحم اليهوديّة
سقط اعتزاز اليهود
فليتهلّل الأطفال لأنّهم ذُبحوا من أجل المسيح
ولتنتحب اليهوديّة لأنّه قد سُمع صوت في الرامة
راحيل تنوح باكية على بنيها كما كُتب
فإنّ هيرودس المتجاوز الشريعة بقتله الأطفال
قد أتمّ المكتوب
مفعماً اليهوديّة دماً زكيّاً
فالأرض تخضّبت بدماء الصبيان
وأمّا الكنيسة التي من الأمم
فقد تسربلت حلّة التطهير سرّيّاً
الحقيقة قد وردت والإله قد ظهر للجالسين في الظلام
مولوداً من البتول لكي يخلّصنا»[١].

❖

---

(١) خدمة غروب تذكار أطفال بيت لحم الشهداء.

٣٠

ختانة الربّ

في اليوم الثامن بعد الميلاد، ويصادف اليوم الأوّل من السنة الجديدة، تحتفل الكنيسة بعيد ختانة الربّ وإعطائه اسم يسوع الذي يعني المخلّص.

«ولمّا تمت ثمانية أيّام ليختنوا الصبيّ سُمّي يسوع، كما تسمّى من الملاك قبل أن حُبل به في البطن» (لو٢: ٢١).

يصادف هذا اليوم أيضاً ذكرى رقاد القدّيس باسيليوس الكبير التي تحتلّ قسماً من ليتورجيا العيد.

«إنّ سيّد كلّ البرايا يحتمل الختانة فيحسم زلات الآنام بما أنّه صالح. ويمنح اليوم الخلاص للعالم. فيفرح في الأعالي رئيس كهنة الخالق المتوشّح بالضياء خادم المسيح باسيليوس»[1].

بحسب ليتورجيا العيد، يقبل الربّ ختانة جسديّة لكي يتمّ ناموس موسى، الذي ما كان أحد من قبل قادراً على إتمامه. بإتمام «**كلّ شيء بحسب الناموس**» (لو٢: ٣٩)، يكون المسيح قد تمّم «**كلّ برّ**» (مت٣: ١٥). بهذا المعنى هو أتمّ الناموس والأنبياء، ليس فقط لأنّه عمل ما هو مكتوب عنه، بل لأنّه أيضاً بعمله كلّ الأشياء التي يجب على كلّ واحد أن يعملها، فتمّم كلمة الله حقاً.

---

(١) قنداق عيد ختانة الربّ والقدّيس باسيليوس الكبير.

«إنّ الإله الكلّيّ صلاحه لم يأنف أن يختتن ختانة جسديّة بل جعل ذاته مثالاً للجميع للخلاص. فإنّ واضع الشريعة يتمّم فرائض الشريعة وكرازات الأنبياء عنه. فيا أيّها الحاوي الكلّ في قبضته. يا من أُدرج في أقمطة يا ربّ المجد لك»[1].

بإتمامه كلّ شيء وفق الناموس، يُظهر الربّ أنّه أتى ليكون خادماً، وليماهي ذاته كليّاً مع مخلوقاته الخاطئة. هذا هو تواضع الله الإلهيّ، محبّته الرقيقة وصبره الفائقا العظمة. تواضعه وتنازله، اللذان يفوقان كلّ وصف ويعجز الكلام عنهما، من أجلنا نحن الضائعين. لأنّه لم يوجد فقط «*في الهيئة كإنسان، بل أخلى ذاته من مجده الإلهيّ اخذاً صورة عبد*» (في ٢: ٧-٨)، خاضعاً لحكم رئيس الكهنة، مظهراً علامة الخضوع الكامل لله، متحمّلاً فعل الخضوع، هذا الذي يُظهر موقف الخليقة غير المقدّسة، الضعيف والمحتاج إلى المساعدة الكاملة، أمّام خالقها الإلهيّ. لا تستطيع الكلمات أن توضح تنازل الربّ بمشيئته لكي يختتن. إنّه فعل إخلاء ذات وتواضع لا يمكن وصفهما.

«أيّها الرب الجزيل التحنّن
إنّك وأنت إله بحسب الجوهر
قد اتّخذت صورة بشريّة بغير استحالة
وإذ أتممت الشريعة
تقبّلت باختيارك ختانة جسديّة
لكي تنسخ الرسوم الظلّيّة
وتزيل قناع أهوائنا
فالمجد لصلاحك

---

(١) خدمة غروب عيد ختانة الربّ.

المجد لتحننك

المجد لتنازلك الذي لا يوصف أيّها الكلمة»[1].

عندما قبل الربّ الختانة نجىّ شعبه من لعنة الناموس وحرّره من علامات العهد الطقسيّة المؤسّسة على الناموس. ناموس الله ليس لعنة بذاته، مع أنّ بعض اللاهوتيّين المسيحيّين يميلون إلى هذا التعليم. يقول بولس الرسول: «**الناموس مقدّس، والوصيّة مقدّسة وعادلة وصالحة**» (رو٧: ١٢). المشكلة هي في أنّ ما من أحد قادر على أن يحفظ الناموس. فإذا كنّا سنُحاسب حسب أعمال الناموس، لا يستطيع أحد أن يعمله، وهكذا بالإيمان بالمسيح يصير كلّ المؤمنين أبراراً أمام الله.

أُعطي الختان بحدّ ذاته كجواب عن الإيمان. كان علامة الانتماء إيمانيّاً إلى الربّ. حتّى في شكله ومعناه الأصليّين، لم يكن مجرّد فعل مادّيّ، بل روحيّ، لم يكن فقط أمراً لحميّاً، بل قلبيّاً.

«**فإنّ الختان ينفع إن عملت بالناموس. ولكن إن كنت متعدّياً الناموس، فقد صار ختانك غرلة! إذاً إن كان الأغرل يحفظ أحكام الناموس، أفما تحسب غرلته ختاناً؟ وتكون الغرلة التي من الطبيعة، وهي تكمّل الناموس، تدينك أنت الذي في الكتاب والختان تتعدّى الناموس؟ لأنّ اليهوديّ في الظاهر ليس يهوديّاً، ولا الختان الذي في الظاهر في اللحم ختاناً، بل اليهوديّ في الخفاء هو اليهوديّ، وختان القلب بالروح لا بالكتاب هو الختان. الذي مدحه ليس من الناس بل من الله**» (رو٢: ٢٥-٢٩).

بسبب برّ يسوع المسيح الطقسيّ والمعنويّ، المادّيّ والروحيّ، الشرائعيّ والأخلاقيّ، فإنّه يحرّر شعبه من كلّ شيء ينتهي إلى هذا العالم ويفتح

---

(١) طروباريّة عيد ختانة الربّ.

لهم الحياة في مملكة الله في الدهر الآتي. «لأنّه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة، بل الإيمان العامل بالمحبّة» (غلا ٥ : ٦).

«دُعي أحد وهو مختون، فلا يصر أغلف. دُعي أحد في الغرلة، فلا يختتن. ليس الختان شيئاً، وليست الغرلة شيئاً، بل حفظ وصايا الله» (١كو ٧: ١٨-١٩).

«جميع الذين يريدون أن يعملوا منظراً حسناً في الجسد، هؤلاء يلزمونكم أن تختتنوا، لئلا يضطهدوا لأجل صليب المسيح فقط. لأنّ الذين يختتنون هم لا يحفظون الناموس، بل يريدون أن تختتنوا أنتم لكي يفتخروا في جسدكم. وأمّا من جهتي، فحاشا لي أن أفتخر إلا بصليب ربّنا يسوع المسيح، الذي به قد صُلب العالم لي وأنا للعالم. لأنّه في المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة، بل الخليقة الجديدة» (غلا ٦: ١٢-١٥).

في الاحتفال بفصح الشتاء، يعرف المؤمنون حقّاً، من أجل أنفسهم، أنّ «الأشياء العتيقة قد مضت، هوذا الكلّ قد صار جديداً» (غلا ٥: ١٧).

«إنّ الختانة قد بطُلت مذ اختتن المسيح باختياره
مخلّصاً جماهير الأمم بنعمته».

«إنّ المسيح في اليوم الثامن من ميلاده
يتقبّل ختانة
فبذلك يزيل اليوم ظلّها
مطلعاً نور النعمة الجديدة»

«إنّ المولود من الآب بحال لا تفسّر
خلواً من انفصال ولا تغيير
بما أنّه الكلمة وإله من إله

يحتمل بالجسد ختانة ولم يزل غير مستحيل بلاهوته
والذي هو فوق الشريعة قد صار تحت الشريعة
فأنقذ الجميع من لعنة الشريعة
ومنحهم البركة التي من العلاء
لذلك فلنمدحه مسبّحين تنازله الفائق الصلاح
ونمجّده بشكر ضارعين إليه أن يمنح لنفوسنا
الرحمة العظمى»[1].

❖

---

(١) خدمة سَحَر عيد ختانة الربّ. الرجوع إلى «اليوم الثامن» كـ «تصوير للحياة الأبديّة في الدهر الآتي» يتكرّر بطرائق مختلفة في صلوات العيد. ويعود إلى التعليم اليهوديّ والمسيحيّ المبكر بأنّ يوم الربّ، الذي هو يوم مملكة الله، يتجاوز زمان هذا العالم الذي يقاس أسبوعه بسبعة أيّام. لهذا فإن «اليوم الذي بعد السبت» أي «اليوم الثامن»، يرمز إلى الدهر الآتي. ووقوع حدث الختانة وإطلاق الاسم للمسيح في هذا اليوم تصير رمز الحياة الأبديّة. ولأجل هذا فإنّ أكثر الأعياد الكبرى في الكنيسة تدوم لثمانية أيّام (بين يوم العيد ووداعه).

٣١

ظهور الربّ في الأردن

يبدأ الاحتفال الليتورجيّ بعيد ظهور الربّ في الأردن، على غرار الاحتفال الليتورجيّ بعيد ميلاده، وذلك بفترة تهيئة تمتّد على خمسة أيّام قبل العيد. وكصلوات الميلاد، كثير من تراتيل فترة التهيئة هذه، تحاكي في الشكل صلوات فصح الربّ، موته وقيامته. ومرّة أخرى تتغيّر بضع كلمات فقط من تراتيل الأسبوع العظيم، لكي تمجّد السرّ الحاضر.

«إنّنا إذ تمتّعنا قبلاً بالوليمة السيّديّة
والمائدة التي لا تفرغ في مغارة حقيرة
فلنبادر الآن نحو الأردن
لنشاهد سرّاً غريباً
هو علّة البهاء العلويّ»[١].

«إنّ العيد الماضي عيد ميلاد المسيح
قد حصل أشدّ بهاء من الشمس
وأمّا العيد الآتي عيد ظهوره الإلهيّ
فيبدو متلألئاً وكلّيّ الضياء
في ذاك رعاة قد سجدوا
ممجّدين مع الملائكة إلهاً متأنساً
أمّا في هذا فيوحنّا لمّا لامس هامة السيّد

---

(١) خدمة صلاة النوم ليوم ٤ كانون الثاني.

بيده اليمنى برعدة قائلاً
قدّسني والمياه أيّها المالك وحده الرحمة العظمى»[١].

«إنّ العيد الماضي البهيّ
وإنّ اليوم الحاضر المجيد
في ذاك مجوس سجدوا للمخلّص
وفي هذا عبد قد دُعي ليعمّد السيّد
هناك رعاة ساهرون أبصروا وتعجّبوا
وهنا صوت الآب قد كرز بالابن الوحيد»[٢].

كما رأينا سابقاً، تعني كلمة «إبيفاني» الظهور والإظهار. وهي تستخدم لحدث معموديّة المسيح. لأنّه في حين اعتماده على يد يوحنّا المعمدان، في نهر الأردن، ظهر يسوع للعالم وأظهر ذاته المسيح، ابن الله الوحيد، أحد الثالوث القدّوس.

حدث ظهور الربّ العلنيّ في معموديّته لسبب وجيه جدّاً. فالمعموديّة رمز الموت والقيامة؛ والمسيح أتى إلى الأرض لكي يموت ثمّ يقوم. المعموديّة رمز التوبة عن الخطايا وغفرانها؛ والمسيح أتى كحمل الله الذي يرفع خطيئة العالم لكي يخلّصه منها. المعموديّة رمز التقديس؛ والمسيح أتى ليقدّس الخليقة كلّها. المعموديّة رمز الجدّة اللامعة. عندما يعتمد أحد ما فالعتيق فيه ينتهي ويأتي الجديد. وقد ظهر المسيح على الأرض لينهي الأشياء العتيقة كلّها ويجعلها جديدة. لهذا فإنّ فعل المعموديّة يحتوي رمزيّاً كامل سرّ المسيح، كلّ هدف مجيئه.

لم يكن المسيح بحاجة إلى أن يعتمد. هذا واضح جدّاً في الإنجيل. لكنّه اعتمد من أجلنا لكي «يتمّم كلّ برّ» (مت ٣: ١٥).

---

(١) خدمة صلاة السَحَر ليوم ٢ كانون الثاني.

(٢) خدمة صلاة الغروب ليوم ٤ كانون الثاني.

«حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنّا ليعتمد منه. لكن يوحنّا منعه قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك، وأنت تأتي إليّ!. فأجاب يسوع وقال له: اسمح الآن، لأنّه هكذا يليق أن نكمّل كلّ برّ. حينئذ سمح له. فلمّا اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السماوات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه. وصوت من السماوات قائلاً: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت». (مت٣: ١٣-١٧).

كانت معموديّة يوحنّا «معموديّة توبة لغفران الخطايا». وأتى الناس إلى يوحنّا «معترفين بخطاياهم» (مر١: ٤-٥) الربّ يسوع لا يحتاج إلى التوبة. فهو كابن الله في جسد بشريّ لم يرتكب أيّة خطيئة. لذلك فإنّ معموديّته تظهر مشاركته خلائقه الخطأة. لقد صار، حرفيّاً، واحداً منّا، ليس فقط في بشريّتنا بل في صورتنا الساقطة، ليس فقط في حياتنا على الأرض، بل أيضاً في موتنا. لأنّه كما يقول بولس الرسول: «جُعل الذي لم يعرف خطيئة، خطيئةً من أجلنا، لنصير نحن برّ الله فيه» (٢ كو٥: ٢١).

ولكن الذي وُضع قليلاً عن الملائكة، يسوع، نراه مكلّلاً بالمجد والكرامة، من أجل ألم الموت، لكي يذوق بنعمة الله الموت لأجل كلّ واحد.... فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما، لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس، ويعتق أولئك الذين، خوفاً من الموت، كانوا جميعاً كلّ حياتهم تحت العبوديّة.... من ثمّ كان ينبغي أن يشبه إخوته في كلّ شيء، لكن يكون رحيماً، ورئيس كهنة أميناً في ما لله حتّى يكفّر خطايا الشعب» (عب ٢: ٩، ١٤-١٥، ١٧)

في احتفال الكنيسة بعيد ظهور الربّ في الأردن، صار المؤمنون قادرين على رؤية يسوع مثلهم بكلّ إجلال، داخلاً المياه ليشاركهم حالتهم

الساقطة لكي ينهي وضعها ويخلقهم من جديد للحياة في ملكوت الله. تيقّنوا حقّاً أنّ المسيح، هو ابن الله الحيّ، الذي أتى ليخلّص العالم.

«هلمّوا أيّها المؤمنون
لنذهب معاً نحو مجاري الأردن عقليّاً
لنشاهد علانية عجباً عظيماً
لأنّ خالق الكلّ قد شوهد ظافراً وآتياً ليصطبغ»[١].

«لننتقل من بيت لحم إلى الأردن
لأنّ هناك قد بدا الآن
يشرق النور للذين في الظلام»[٢].

«يا من دُعيتم إلى الطعام الإلهيّ
وتنعّمتم بأقوال بيت لحم
ممجّدين مع الملائكة والرعاة والمجوس للمتجسّد
لنمضِ الآن نحو الأردن سرّيّاً
فنشاهد السرّ العظيم الذي يأتي المسيح ليتمّمه
ولنزده رفعةً مدى الدهور»[٣].

«لقد جاء المسيح الذي حصل متمّماً الشريعة بحسب الجسد
ليتمّم باكورة الخلاص في الأردن بما أنّه المتحنّن
فيحني هامته للصابغ الهاتف بإيمان
لنهتفنّ أيّها الشعوب قائلين
مبارك أنت يا إلهنا الظاهر المجد لك»[٤].

❖

---

(١) خدمة صلاة الغروب ليوم ٣ كانون الثاني.
(٢) خدمة صلاة السَحَر ليوم ٣ كانون الثاني.
(٣) خدمة صلاة النوم ليوم ٤ كانون الثاني.
(٤) خدمة صلاة السَحَر ليوم ٣ كانون الثاني.

٣٢

ظهور الثالوث

معموديّة يسوع في نهر الأردن، التي تحتوي كلّ أسرار خلاصنا، ليست ظهوره كماسيّا فقط، أو كخادم الربّ المتألّم. إنّها الظهور الأوّل لأعظم سرّ أيضاً، أعني السجود للثالوث القدّوس.

«لنذرفنّ أيّها المؤمنون، ينابيع عبرات من أعيننا،
ونطهّر كلّ أدناس النفوس،
ونشاهد نوراً مثلّث الضياء،
بمجيء المسيح ليعتمد،
الذي له يشهد الآب من السماء،
ويبدو حضور الروح القدس بهيئة حمامة»(١).

«باعتمادك يا ربّ في نهر الأردن،
ظهرت السجدة للثالوث،
لأنّ صوت الآب تقدّم لك بالشهادة،
مسمّياً إياك ابناً محبوباً،
والروح بهيئة حمامة،
يؤيّد حقيقة الكلمة،
فيا من ظهرت وأنرت العالم،
أيّها المسيح الإله، المجد لك»(٢).

---

(١) خدمة صلاة النوم ليوم ٣ كانون الثاني.
(٢) طروباريّة عيد الظهور الإلهيّ.

حقّاً انكشف سرّ الأسرار بوضوح للعالم للمرّة الأولى في معموديّة يسوع. إنّه الظهور الأوّل لسرّ الثالوث. ذاك السرّ الذي لمّح إليه العهد القديم بشكل باهت في «ظلال» عهود إسرائيل السابقة. لقد عُرف أنّ الله الواحد الحقيقيّ هو أب بالأساس[1]. لأنّ الله المحبّة بذاتها، فهو لا يستطيع أن يبقى معزولاً في كمال ألوهيّته. الله محبّة هذا ما أخبرت به حوادث «عهد الله الأخير الأبديّ»، الذي ختمه المسيح بدمه، وأُخبرنا عنه بمصطلحات متناقضة، لأنّه سرّ يفوق عقول البشر. لأنّ الله هو بالمطلق المحبّة بذاتها «لأنّ الله محبّة» (١يو٤: ٨، ١٦) فهو مشارك بطبيعته. ويجب أن يُظهر ذاته وكماله الإلهيّ في الشخص الإلهيّ للآخر. وهو يفعل. لأنّ له ابناً أزليّاً إلهيّاً وغير مخلوق، ابناً هو صورته وكلمته الإلهيّة[2]، ابناً هو «بهاء مجده ورسم جوهره» (عب١: ٣)[3]. إنّه ابنه المحبوب، أو بتعبير أكثر دقّة، استعمله القدّيس بولس الرسول، «ابن محبّته» (كول١: ١٣). كلّ الأشياء صُنعت به ولأجله[4]، «الذي هو قبل كلّ شيء، وفيه يقوم الكلّ» (كول١: ١٧)[5].

لكن «إذ كان في صورة الله، لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله. لكنّه أخلى نفسه، آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس» (في٢: ٦-٧).

«وإذ وُجد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه وأطاع حتّى الموت موت الصليب. لذلك رفعه الله أيضاً، وأعطاه اسماً فوق كلّ اسم لكي تجثو

(١) تستخدم كتابات العصر الرسوليّ التمييز بين «ظلّ» و«حقيقة» لتصف العلاقة بين العهدين (القديم والجديد)؛ انظر كول ٢: ١٧ وعب ١٠: ١.

(٢) يو ١: ١-١٨؛ كول ١: ١٥؛ ٢ كو ٤: ٤.

(٣) انظر أيضاً المقالة الثانية.

(٤) يو ١: ١-٣؛ عب ١: ١-٣؛ كول ١: ١٦.

(٥) يشهد يوحنّا المعمدان أنّ يسوع قدّامه (يو ١: ٣٠). ويقول يسوع عن نفسه إنّه «قبل إبراهيم أنا كائن» (يو ٨: ٥٨).

باسم يسوع كلّ ركبة ممّن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كلّ لسان أنّ يسوع المسيح هو ربّ لمجد الله الآب» (في٢: ٨-١١)

مع ظهور ابن الله، يسوع المسيح، مخلّص العالم، انكشف روح الله القدس شخصاً إلهيّاً فريداً. هو بدوره صُوِّر سابقاً في العهود القديمة بشكل باهت وغير واضح. بينما انكشف الآن بمجده الإلهيّ. إنّه «روح الحقّ الذي من عند الآب ينبثق» (يو١٥: ٢٦). الذي نزل شخصيّاً على يسوع، ومسحه في تواضعه، وتالياً مسح كلّ الناس عبره، مظهراً إيّاه للعالم المسيح الموعود، ومشعّاً منه على كلّ الذين يقبلونه ربّاً وإلهاً[١].

هذه هي العقيدة الأرثوذكسية الفريدة أعني: الثالوث الإلهيّ «واحد في الجوهر وغير منقسم»[٢]. لقد سبق وظهر ظلّه في العهد القديم. واقترب منه بالتأمّل أناس ترقّوا روحيّاً من ديانات العالم المختلفة. الذي اكتشفه بشكل غير واضح بالتنظير العقليّ الفلاسفة الصوفيّون، وبخاصّة اليونان منهم. لقد ظهر بوضوح في «عهد السلام الأبديّ والنهائيّ» إلهاً واحداً بثلاثة أقانيم. انكشف أوّلاً في قلب الاحتفال بفصح الشتاء في الكنيسة الأرثوذكسيّة.

«أيّها المسيح الإله
إنّ يوحنّا لمّا أبصرك مقبلاً إليه في نهر الأردن هتف قائلاً
كيف أقبلت نحو العبد أيّها الربّ الذي لا دنس فيه
فباسم من أعمّدك؟
أباسم الآب! فإنك حامل إيّاه في ذاتك
أباسم الابن! فإنّك أنت هو المتجسّد

(١) انظر يو ١: ٣٢- ٣٤؛ ١٥: ٢٦؛ ١٦: ٧-١٥؛ ٢٠: ٢٨.
(٢) هذه صيغة قدّاس القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم الليتورجيّة.

أباسم الروح القدس! فإنّك قد عرفت أن تمنحه للمؤمنين بواسطة الفم فيا أيّها الإله الظاهر ارحمنا»[١].

«لقد حصل في الأردن ظهور الثالوث
الذي هو جوهر فائق اللاهوت
فالآب هتف قائلاً
هذا المعتمد هو ابني الحبيب
والروح كان حاضراً مع المساوي له في الجوهر
الذي تباركه الشعوب وتزيده رفعة مدى الدهور»

«لنتكلّم أيّها المؤمنون جميعاً
بأصوات لا تصمت بلاهوت الإله
الذي به نلنا الكمال
ونمجّده مع الملائكة
أباً وابناً وروح قدس.
ثالوث بحسب الأقانيم
وإله واحد متساوٍ في الجوهر
فله نرتّل
مبارك أنت يا إله آبائنا»[٢].

❖

(١) خدمة صلاة النوم لعيد الظهور الإلهيّ. وترتّل أيضاً في غروب اليوم الثاني للعيد.
(٢) خدمة سَحَر عيد الظهور الإلهيّ.

٣٣

نهر الأردن

يؤدّي نهر الأردن دوراً مهمّاً في الكتاب المقدّس. فهو قبل أن يكون النهر الذي اعتمد المسيح فيه، هو النهر الذي يحدّ «الأرض الموعودة». ويجب، تالياً، أن يعبره الداخلون إلى «الأرض التي تدرّ لبناً وحليباً وعسلاً»، المكان الذي سيبارك فيه الله شعبه بحضوره الدائم.

في العهد الجديد، بروحانيّته وصوفيّته، اللتين تحقّقان ملء العهد القديم، يرمز عبور نهر الأردن إلى دخول مملكة الله، إلى اختبار ملء الحياة في الدهر الآتي. حقيقة أنّ موسى لم يتبارك بعبور الأردن ترمز إلى حقيقة أنّ الناموس الموسويّ، بحدّ ذاته، ما كان قادراً على منح الخلاص. كما يرمز يشوع، الذي يعني اسمه «المخلّص»، وهو الشكل العبرانيّ لاسم «يسوع»، الذي قاد الشعب وعبر نهر الأردن معه، إلى فعل الخلاص بيشوع الجديد، أعني يسوع المسيح المخلّص، في عهد النعمة.

«وكان بعد موت موسى عبد الربّ أنّ الربّ كلّم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً: موسى عبدي قد مات. فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكلّ هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم» (يش ١: ١-٢).

تخبر رواية الكتاب المقدّس أنّ نهر الأردن انشقّ ليعبره يشوع ومن معه. فعبروا وكان الكهنة يحملون تابوت العهد. مثلما سمح انشقاق مياه البحر للشعب بأن يعبر كما لو كان أرضاً جافة، وذلك عند خروجهم من مصر.

«هوذا تابوت عهد سيّد كلّ الأرض عابر أمامكم في الأردن. فالآن انتخبوا اثني عشر رجلاً من أسباط إسرائيل، رجلاً واحداً من كلّ سبط. ويكون حينما تستقرّ بطون أقدام الكهنة حاملي تابوت الربّ سيّد الأرض كلّها في مياه الأردن، أنّ مياه الأردن، المياه المنحدرة من فوق، تنفلق وتقف ندّاً واحداً» (يش ٣: ١١-١٣)

وأمر الربّ يشوع أيضاً ليأخذ اثني عشر حجراً من نهر الأردن ويضعها سويّة في مكان واحد في كومة حيثما عبر الشعب، لتبقى «ذكرى للشعب إلى الأبد» عمّا عمل الله لهم.

«ففعل بنو إسرائيل هكذا كما أمر يشوع، وحملوا اثني عشر حجراً من وسط الأردن، كما قال الربّ ليشوع، حسب عدد أسباط بني إسرائيل، وعبّروها معهم إلى المبيت ووضعوها هناك. ونصب يشوع اثني عشر حجراً في وسط الأردن تحت موقف أرجل الكهنة حاملي تابوت العهد وهي هناك إلى اليوم. والكهنة حاملو التابوت وقفوا في وسط الأردن حتّى انتهى كلّ شيء». (يش ٤: ٨-١٠)

بعدما عبر يشوع وصحبه نهر الأردن «عادت المياه إلى وضعها الأوّل وجرت كعادتها» (يش ٤: ١٨). صار هذا العجَب الغريب جزءاً من ذاكرة بني إسرائيل الحيّة، واحتفل الشعب بالحدث في عبادة أقامها. وترتّل الكنيسة المزمور الذي يروي هذا الحدث في عيد الظهور الإلهيّ كرمز مسبق لفعل الله الخلاصيّ الذي سيشمل كلّ الشعوب، وذلك بموت ابنه المحبوب والممسوح وقيامته، الذي اعتمد في مجاري نهر الأردن.

«عند خروج إسرائيل من مصر
وبيت يعقوب من شعب أعجم
كان يهوذا مقدسه
ولإسرائيل محلّ سلطانه

البحر رآه فهرب
الأردن رجع إلى خلف
الجبال قفزت مثل الكباش
والآكام مثل حملان الغنم
ما لك أيّها البحر قد هربت؟
وما لك أيّها الأردن قد رجعت إلى خلف؟
وما لكنّ أيّتها الجبال قد قفزتنّ مثل الكباش؟
وأيّتها التلال مثل حملان الغنم؟
أيّتها الأرض تزلزلي من قدّام الربّ
من قدّام إله يعقوب!
المحوّل الصخرة إلى غدران مياه
الصوّان إلى ينابيع مياه» (مز ١١٤).

لقد وقف نهر الأردن أيضاً مرّة عندما عبره النبيّ إيليّا وتلميذه أليشع. وتذكر ليتورجيا الظهور الإلهيّ هذه الحادثة (٢ ملوك٢). ومن الأردن صعد النبيّ إيليّا إلى السماء، ليعود ثانية، حسبما يقول التقليد، ليهيّئ الطريق أمام المسيح. (انظر مت ١٧: ٩-١٣). كما أنّ نعمان السوريّ طهر من برصه عندما اغتسل في مياه الأردن، وكان شفاؤه علامة لتطهير الخلاص الذي سيعطى لكلّ الشعوب وليس إسرائيل فقط بواسطة المسيح (لو ٤: ٢٧). وهكذا نرى في حادثة شفاء نعمان السوريّ أنّ لنهر الأردن دلالة خاصّة يشدَّد عليها مرّة أخرى.

«فأرسل إليه أليشع رسولاً يقول: «اذهب واغتسل سبع مرّات في الأردن. فيرجع لحمك إليك وتطهر». فغضب نعمان ومضى وقال: هوذا قلت إنّه يخرج إليّ، ويقف ويدعو باسم الربّ إلهه، ويردد يده فوق الموضع فيشفي الأبرص. أليس أبانة وفرفر نهرا دمشق أحسن من جميع

مياه إسرائيل؟ أما كنت أغتسل بهما فأطهر؟ «ورجع ومضى بغيظ. فتقدّم عبيده وكلّموه وقالوا: يا أبانا لو قال لك النبيّ أمراً عظيماً، أما كنت تعمله؟ فكم بالحريّ إذا قال لك اغتسل واطهر؟». فنزل وغطس في الأردن سبع مرّات، حسب قول رجل الله، فرجع لحمه كلحم صبيّ صغير وطهر». (٢ ملو ٥: ١٠-١٤)

ألا نستطيع أن نغتسل في أيّ نهر ونطهر؟ وجواب الله هو لا. فقط في الأردن، في معموديّة المسيح، نطهر من كلّ خطايانا. عبر نهر الأردن فقط ندخل أرض الأحياء، مملكة الله الموعودة. بمياه الأردن المتقدّسة (المعموديّة) يقدّسنا الله إلى الأبد.

«إنّ نهر الأردن قد انكفأ راجعاً قديماً
بوشاح أليشع عند صعود إيليّا
وانشقّ الماء إلى هذه الجهة وإلى تلك
فحصلت له المادّة الرطبة طريقاً يابسة
فكان ذلك رسماً للمعموديّة حقّاً
التي بها نجوز سبيل العمر الزائل
المسيح ظهر في الأردن ليقدّس المياه»(١)

«إن أجناد الملائكة ارتعدت
لمّا شاهدت فادينا مصطبغاً من عبد
ومشهوداً له بحضور الروح
وصوتاً من لدن الآب يهتف من السماء قائلاً
إنّ هذا الذي يضع السابق يده عليه
هو ابني الحبيب الذي به سررت
فيا أيّها المسيح إلهنا المجد لك»(٢).

---

(١) طروباريّة برامون عيد الظهور.

(٢) خدمة غروب ما بعد عيد الظهور الإلهيّ (٨ كانون الثاني)

«إنّ يشوع بن نون
لمّا أجاز الشعب وتابوت الله في الأردن
أشار رمزيّاً إلى الإحسان المتوقّع
لأنّ اجتيازهما السرّيّ
قد رمز لنا بالروح
إلى مثال تجديد الصورة
ورسم إعادة الولادة الحقيقيّة
فإنّ المسيح قد ظهر في الأردن ليقدّس المياه»[1].

«إنّ الصابغ ارتعدت يده
لمّا لامس الهامة الطاهرة
ونهر الأردن رجع إلى الوراء
إذ لم يجسر أن يخدمك
فإنّ الذي احتشم من يشوع بن نون
كيف لا يجزع من خالقه
إلا أنّك يا مخلّصنا
قد تمّمت كلّ تدبير
لكي تخلّص العالم بظهورك
أيّها المحب البشر وحدك»[2].

❖

(١) خدمة سَحَر ما بعد عيد الظهور الإلهيّ (٩ كانون الثاني).
(٢) خدمة غروب عيد الظهور الإلهيّ.

٣٤

تقديس الماء

تحتفل الكنيسة الأرثوذكسية بخدمة تقديس الماء بعد قدّاس بارامون عيد الظهور الإلهيّ، الذي يبدأ بخدمة صلاة الغروب عشيّة عيد الظهور الإلهيّ أي في الخامس من كانون الثاني[١]. وفيها أوّلاً تراتيل خاصّة بالعيد يرافقها تبخير الماء، وتتخلّلها قراءات من الكتاب المقدّس وطلبات وصلوات[٢].

«صوت الربّ على المياه يهتف قائلاً:
هلمّوا فخذوا جميعكم روح حكمة، روح فهم،
روح مخافة الله، بظهور المسيح».

«اليوم طبيعة المياه تتقدّس،
والأردن ينشقّ، وتُمسك مياهه عن الجري،
إذ يشاهد السيّد فيه مغتسلا».

---

(١) درجت العادة في كنائس الرعايا أن تقام خدمة تقديس الماء في الوقت الأنسب للناس الذي يكونون فيه مجتمعين في الكنيسة (إمّا مساء ليلة العيد أو صباح يوم العيد بعد القداس الإلهيّ). بحسب التبيكون يجب أن تقام خدمة تقديس الماء عشيّة ليلة العيد إذا أُقيمت داخل الكنيسة، وصباح يوم العيد إذا أُقيمت خارج الكنيسة عند منبع مائيّ طبيعيّ.

(٢) قراءات الخدمة الكتابيّة من سفر النبي أشعياء. الأولى: ٣٥: ١-١٠. الثانية: ٥٥: ١-١٣. الثالثة: ١٢: ٣-٦. آيات المزامير من المزمورين ١١٤ و٢٨. الرسالة من ١ كورنثوس ١٠: ١-٤. إنجيل المعموديّة من مرقس.

«أيّها المسيح الملك.
قد أتيت إلى النهر كإنسان
فأنت تبادر أيّها الصالح،
لتتقبّل المعموديّة كعبدٍ، من يدي السابق،
لأجل خطايانا أيّها المحبّ البشر».

«نحو الصوت الصارخ في البرّيّة
أعدّوا طريق الربّ
قد أتيتَ يا ربّ آخذاً صورة عبدٍ
ملتمساً المعموديّة يا من لا يعرف خطيئة.
فالمياه قد أبصرتك ففزعت
والسابق ارتعد وصرخ قائلاً:
كيف يستضيء النور من المصباح؟
وكيف يضع العبد يده على السيّد؟
فقدّسني والمياه أيّها المخلّص الرافع خطيئة العالم»[١].

يوضع الماء في وعاء كبير ولائق في وسط الكنيسة، أو قد يكون ماء جارياً من مصدر طبيعيّ (يمكن أن تقام الخدمة حول نبع أو ضفّة نهر أو بحيرة..)، ويُزين بالشموع والأزهار التي ترمز إلى عالم الله المخلوق الجميل، إلى خليقة الله الأصليّة المخلوقة بكلمته وروحه. هذا العالم الجميل ذاته، سوف يصير ملكوت الله في نهاية الدهور، بافتدائه بواسطة الكلمة المتجسِّد، يسوع المسيح، وبالروح القدس.

يعتقد البعض أنّ تبريك الماء وشربه ورشّ الناس والبيوت به عادة «وثنيّة» الكنيسة المسيحيّة. نحن، على كلّ حال، نعرف أنّ شعب الله في العهد القديم كان يمارس هذا الطقس قبل مجيء المسيح، كما في وقت

(١) خدمة تقديس الماء.

ظهوره (انظر يو ٥-٧). ونعلم أنّه موجود عند المسيحيّين منذ الأزمنة للمسيحيّة الأولى، ومشهود له منذ البدء وبخاصّة في سرّ المعموديّة.

تكشف خدمة تقديس الماء بذاتها معنى الفعل عند المسيحيّين. فالقراءات الكتابيّة، خصوصاً الكلمات المسيحانيّة في قراءة النبيّ أشعياء، مع الصلوات والطلبات والتراتيل كلّها تكشف معنى الاحتفال الكبير بظهور المسيح وتبيّنه.

«تفرح البرّيّة والأرض اليابسة، ويبتهج القفر ويُزهر كالنرجس، يُزهر إزهاراً ويبتهج ابتهاجاً ويرنّم. يُدفع إليه مجد لبنان. بهاء كرمل وشارون. هم يرون مجد الربّ، بهاء إلهنا. شدّدوا الأيادي المسترخية، والرّكب المرتعشة ثبّتوها. قولوا لخائفي القلوب: «تشدّدوا لا تخافوا هوذا إلهكم. الانتقام يأتي. جزاء الله هو يأتي ويخلّصكم. حينئذ تنفتح عيون العمي، وآذان الصمّ تنفتح. حينئذ يقفز الأعرج كالأيل ويترنّم لسان الأخرس، لأنّه قد انفجرت في البريّة مياه، وأنهار في القفر. ويصير السراب أجماً، والمعطشة ينابيع ماء. في مسكن الذئاب، في مربضها دارٌ للقصَب والبردي، وتكون هناك سكّة وطريق يُقال لها: الطريق المقدّسة». لا يعبر فيها نجس، بل هي لهم. مَن سلك في الطريق حتّى الجهّال، لا يضلّ. لا يكون هناك أسد. وحش مفترس لا يصعد إليها. لا يوجد هناك. بل يسلك المفديّون فيها. ومفديّو الربّ يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنّم، وفرح أبديّ على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم ويهرب الحزن والتنهّد». (أش ٣٥: ١-١٠)

لقد أرسل الله ابنه الوحيد «لا ليدين العالم، بل ليخلّص به العالم» (يو ٣: ١٧). لقد أرسل الله ابنه يسوع المسيح ليس ليخلّص نفوس الناس فقط، بل ليخلصّ أجسادهم أيضاً، وليس ليخلّص الكائنات البشريّة فقط، بل ليخلّص الخليقة جمعاء.

«عظيم أنت يا ربّ وعجيبة أفعالك وليس من قول يفي بتسبيح عجائبك،لأنّك أنت بمشيئتك أبرزت جميع الأشياء من العدم إلى الوجود. وبعزّتك تضبط الخليقة. وبعنايتك تسوس العالم.... لك تسبّح الشمس. لك يمجّد القمر. لك تخضع النجوم. لك يطيع النور. لك تتعبّد الينابيع... فلك نعترف بالنعمة. ونكرز بالرحمة. ولا نخفي الإحسان. أولاد طبيعتنا أنت حرّرتهم. الحشا البتوليّ بمولدك قدّسته. فكلّ الخليقة قد سبّحتك في ظهورك. لأنّك أنت إلهنا على الأرض ظهرت وبين الناس تردّدت. مجاري الأردن أنت قدّستها.... إذاً أيّها الملك المحبّ البشر احضر الآن بحلول روح قدسك وقدّس هذا الماء. وامنحه نعمة الفداء وبركة الأردن. اجعله ينبوعاً لعدم الفساد. وموهبة للتقديس. وفداء للخطايا. وإكسيراً للأمراض. ومبيداً للشياطين....حتّى إنّ جميع الذين يستقون ويتناولون منه يكون لهم لتنقية النفوس والأجساد. لشفاء الآلام. لتقديس المنازل. ولكلّ منفعة ملائمة..»[1].

طالما أنّ ابن الله قد أخذ جسداً وظهر في العالم، مُظهراً نفسه في معموديّته في نهر الأردن، فكلّ الأجساد والمواد قد تقدّست. كلّ شيء صنعه الله هو نقيّ ومقدّس به. وكلّ شيء مهترىء وفاسد بسبب أفعال خطايا البشر، يتطهّر ويغتسل بأفعال نعمة الله. كلّ قوى الشرير المميتة التي تسمّم عالم خليقة الله الصالح قد دُمّرت. كلّ الأشياء تُصنع ثانية من جديد. في عيد الظهور الإلهيّ، وعبر «العنصر الأوّليّ» للماء، تظهر الخليقة بكاملها مقدّسة بكلمة الله (المسيح) عبر الروح القدس الذي «في البدء... كان يرفّ على وجه المياه» (تك١٠ : ٢).

«لنسبّح أيّها المؤمنون. عظم تدبير الله الجاري لأجلنا
لأنّ الذي هو وحده نقيّ وبريء من الدنس.

---

(١) خدمة تقديس الماء، الأفشين الكبير.

إذ قد صار إنساناً بسبب سقطتنا.
فهو يطهّرنا في الأردن
مقدِّساً إيّانا والمياه.
وساحقاً رؤوس التنانين في الماء.
فلنستقِ أيّها الأخوة بسرور
فإنّ الذين يستقونه بإيمان
تُمنَح لهم نعمة الروح بحال غير منظورة
من لدن المسيح الإله المخلّص نفوسنا»[1].

❖

(١) خدمة تقديس الماء.

٣٥

ظهرت نعمة الله

تستحقّ رسالتَي قدّاس الظهور الإلهيّ والأحد الذي يليه انتباهنا وتأمّلنا. تُقرأ رسالة العيد من رسالة بولس الرسول إلى تلميذه تيطس:

«لأنّه قد ظهرت نعمة الله المخلّصة، لجميع الناس، معلّمة إيّانا أن ننكر الفجور والشهوات العالميّة، ونعيش بالتعقّل والبرّ والتقوى في العالم الحاضر، منتظرين الرجاء المبارَك وظهور مجد الله العظيم ومخلّصنا يسوع المسيح، الذي بذل نفسه لأجلنا، لكي يفدينا من كلّ إثم، ويُظهِر لنفسه شعباً خاصاً غيوراً في أعمال حسنة» (تيط ٢: ١١-١٤؛ ٣: ٤-٧).

كلمة ظهور، في تلك الرسالة، هي الكلمة اليونانيّة (إبيفانيّا) ويعرف بها العيد في معظم اللغات الأوربيّة يستخدم الرسول بولس الفعل «يظهر» وجذر هذه الكلمة في اليونانيّة «إبيفانين».

ظهرت نعمة الله من أجل خلاص جميع الناس. النعمة الإلهيّة تشعّ لذا فإنّ شيئاً ما يحدث في حياة الناس الذين ما يزالون يحيون في هذا العالم. ما يحدث هو أنّنا نتجاوب مع نعمة الله بأعمال اهتداء مميّزة. يجب أن نتجاوب مع نعمة الله بنكران الأهواء العالميّة الدنسة التي هي ميولنا الشهوانيّة من أجل إشباع أنانيّتنا، وشهواتنا الجسديّة التي تقودنا إلى الكراهية والغضب والقلق والإحباط واليأس. هذه جميعها تختفي عندما تظهر نعمة الله. ويأتي بدلاً منها الصحو والتعفّف والاستقامة واللاهوى وضبط النفس والحرّيّة الداخليّة وتقرير المصير الاختياريّ

بحسب مشيئة الله. هذه هي الحرّيّة الحقيقيّة؛ الحرّيّة الحقيقيّة الوحيدة الموجودة. كلّ «حرّيّة» أخرى عبوديّة بالحقيقة. لأنّ نعمة الله تحرّر، بينما قوى الشيطان، وأعمال الذات والجسد تستعبد.

عندما يتجاوب البشر مع نعمة الله الظاهرة، تكون النتيجة أحد الآمال المباركة، توقّع السعيد لظهور آخر، إبيفانيّا أخرى، هي في المطاف الأخير «مجد إلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح» الذي سيتمّ في آخر الأزمنة. ظهور يسوع الأوّل لكي «يفدينا من كلّ الآثام ويطهّرنا لنفسه شعباً غيوراً لأعمال حسنة» يؤدّي بنا مباشرة إلى توقّعنا الخلاصة النهائيّة لكلّ الأشياء في مجيء الربّ الثاني: الإبيفانيّا الأخيريّة.

لهذا هناك ظهوران، الأوّل من أجل خلاصنا وفدائنا وقد أكمله الله في المسيح «ليس بسبب أعمال عملناها بالبرّ، بل بسبب رحمته». والثاني عندما «نتبرّر بنعمته» نحن فعليّاً ندخل الحياة الأبديّة لملكوت الله. نشترك في الثاني فقط بشرط أن نحبّ أوّلاً، ونبرهن حبّنا بحياة إلهيّة غنيّة بالأعمال الحسنة.

يعطي الرسول بولس التعليم ذاته، في الرسالة إلى أفسس، التي تُقرأ في قدّاس يوم الربّ التالي لعيد الظهور.

«ولكن لكلّ واحد منّا أُعطيت النعمة حسب قياس هبة المسيح. لذلك يقول: «إذ صعد إلى العلاء سبى سبياً وأعطى الناس عطايا». وأمّا أنّه «صعد»، فما هو إلا أنّه نزل أيضاً أوّلاً إلى أقسام الأرض السفلى. الذي نزل هو الذي صعد أيضاً فوق جميع السماوات، لكي يملأ الكلّ. وهو أعطى البعض أن يكونوا رسلاً، والبعض أنبياء، والبعض مبشّرين، والبعض رعاة ومعلّمين، لأجل تكميل القدّيسين لعمل الخدمة، لبنيان جسد المسيح، إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانيّة

الإيمان ومعرفة ابن الله. إلى إنسان كامل، إلى قامة ملء المسيح». (أف ٤: ٧-١٣)

في معموديّة يسوع في نهر الأردن، وفي خدمته اللاحقة، نزل ابن الله إلى عمق الحالة البشريّة حتى يملأ كلّ الأشياء بذاته. وبعد نزوله، صعد إلى السموات، آخذاً إيّانا معه إلى حضرة الله، معطياً إيّانا عطايا لأجل الخدمة. وكلّ شخص عنده عطيّة مختلفة ودعوة مختلفة. مهما كانت، فإنّها معطاة من أجل بناء جسد المسيح، الذي هو الكنيسة، ومن أجل تقديس الكلّ وخلاصهم. فهدف كلّ شخص هو «شخصيّة ناضجة: الوصول إلى ملء قامة المسيح».

في الرسالة ذاتها (أفسس) يشدّد الرسول بولس على أنّ الخلاص هو بالنعمة بواسطة الإيمان. المسيحيّون يعبدون المسيح من أجل أعمال حسنة بهدف سامٍ «**أن تعرفوا محبّة المسيح الفائقة المعرفة**» وهكذا «**تمتلئوا إلى كلّ ملء الله**». هذا يحدث في كنيسة المسيح «*لكي التي هي جسده، ملء الذي يملأ الكلّ في الكلّ*» (أف١: ٢٣، ٢: ٨-١٠، ٣: ١٩).

لقد ظهرت نعمة الله من أجل خلاص جميع البشر. الخلاص الذي تجلبه نعمة الله في ظهورها هو أنّ كلّ الناس يستطيعون أن يعملوا الأعمال الصالحة التي عملها المسيح نفسه، ويحصلوا على ملء قامته، هكذا يمتلئون بكلّ ملء الله. يوجز الرسول بولس هذا عن نفسه في رسالته الثانية إلى تيموثاوس:

«*قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان، وأخيراً قد وُضع لي إكليل البرّ، الذي يهبه لي في ذلك اليوم، الربّ الديّان العادل، وليس لي فقط، بل لجميع الذين يحبّون ظهوره أيضاً*» (٢تيمو٤: ٧-٨)

إذا أحببنا ظهور الربّ، وحققّناه برغبتنا بأعمال صالحة، سنتلقّى أكاليلنا من المسيح، القاضي العادل، في يوم ظهوره في اليوم الأخير.

«إنّ المسيح الخلاص. قد ظهر مانحاً الاستنارة
فلتبتهج السماوات، ولتقطر السحب عدلاً
بالحقيقة للصارخين. مبارك أنت يا إله آبائنا»[١].

«إنّ المتردّي النور مثل الثوب
قد ارتضى من أجلنا أن يصير مثلنا
فهو يتردّى اليوم بمجاري الأردن
ليس لأنّه محتاج إلى التطهير
بل هو قد دبّر إعادة ولادتنا في ذاته
فيا له من عجب
لأنّه يمحّصنا خلواً من نار
ويعيد إبداعنا من غير تهشّم
ويخلّص المستنيرين به
المسيح الإله المخلّص نفوسنا»[٢]

«إنّنا إذ قد تطهّرت أجسادنا بالمجد الإلهيّ
فهلمّوا ننقّي حواسنا عقلياً
وإذ نعاين المسيح مصطبغاً بالجسد
وساحقاً هامة الغاشّ
فلنسبّحه كما يليق هاتفين نحوه
مبارك أنت يا إلهنا الظاهر المجد لك»[٣].

---

(١) خدمة سَحَر اليوم السابق للظهور الإلهيّ.
(٢) خدمة غروب العيد (غير مطابقة للقطعة بالإنكليزيّة).
(٣) خدمة غروب اليوم التالي للظهور.

٣٦

أعظم مواليد النساء

في اليوم الذي يلي عيد الظهور الإلهيّ عيد جامع للقدّيس يوحنّا المعمدان، النبيّ والسابق المسيح ومعمّده. إنّه احتفال ليتورجيّ لتكريم الذي مهّد الطريق أمام المسيح وعمّده في نهر الأردن. الذي قال يسوع عنه: «لا يوجد في مواليد النساء أعظم من يوحنّا».

«وهذه هي شهادة يوحنّا، حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويّين ليسألوه: من أنت؟». فاعترف ولم ينكر، وأقرّ: «إنّي لست أنا المسيح». فسألوه: «إذاً ماذا؟ إيليّا أنت؟» فقال: «لست أنا». «النبيّ أنت؟» فأجاب: «لا». فقالوا له: «من أنت، لنعطي جواباً للذين أرسلونا؟ ماذا تقول عن نفسك؟». قال: «أنا صوت صارخ في البرّيّة: قوّموا طريق الربّ، كما قال أشعياء النبيّ». (يو١: ١٩-٢٣)

ويوحنّا شرح لتلاميذه، الذين سيصيرون تلاميذ المسيح، قائلاً:

«أنتم أنفسكم تشهدون لي أني قلت: لست أنا المسيح بل إني مرسَل أمامه. من له العروس فهو العريس، الذي يقف ويسمعه فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس. إذاً فرحي هذا قد كمل. ينبغي أن ذلك يزيد وأنّي أنا أنقص».

يسوع هو العريس الإلهيّ، والكنيسة عروسه. ويوحنّا المعمدان هو الرجل الأفضل في العرس، إنّه «صديق» العريس الذي يفرح لفرحه. كانت حياته كلّها وخدمته من أجل المسيح، الذي مهّد طريقه. كان أميناً

له حتّى، مع أنّه لم يحصل على الجواب، حول مجد شهادته الحرّة والمجّانيّة للحقّ الذي من أجله وُلد ومن أجله مات.

«أمّا يوحنّا فلمّا سمع في السجن بأعمال المسيح، أرسل اثنين من تلاميذه، وقال له: أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟. فأجاب يسوع وقال لهما: اذهبا وأخبرا يوحنّا بما تسمعان وتنظران: العمي يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يطهّرون، والصمّ يسمعون، والموتى يقومون، والمساكين يُبشّرون. وطوبى لمن لا يعثر فيّ.
وبينما ذهب هذان ابتدأ يسوع يقول للجموع عن يوحنّا: ماذا خرجتم إلى البرّيّة لتنظروا؟ أقصبة تحرّكها الريح؟ لكن ماذا خرجتم لتنظروا؟ أإنساناً لابساً ثياباً ناعمة؟ هوذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم في بيوت الملوك. لكن ماذا خرجتم لتنظروا؟ أنبيّاً؟ نعم أقول لكم، وأفضل من نبيّ. فإنّ هذا هو الذي كُتب عنه: ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيىء طريقك قدّامك. الحقّ أقول لكم: لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنّا المعمدان، ولكن الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه. ومن أيّام يوحنّا المعمدان إلى الآن ملكوت الله يُغصَب، والغاصبون يختطفونه. لأنّ جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنّا تنبّأوا. وإن أردتم أن تقبلوا، فهذا إيليّا المزمع أن يأتي. من له أذنان للسمع فليسمع» (مت١١: ٢-١٥)

ليس واضحاً كفاية ما عناه المسيح بقوله: «الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه». ربّما تكلّم عن نفسه. أو ربّما عن العذراء مريم، وأولئك المسيحيّين الذين معها، الذين عاشوا بنعمة الله ليروا قيامة المسيح، ويدخلوا لاحقاً ملكوت الله، على عكس يوحنّا الذي قُطع رأسه قبل صلب المسيح. وكما تعلّم الكنيسة، سيكون يوحنّا سابق المخلّص حتّى في موته. لكن مهما كان التفسير، يبقَ أمر واحد واضح بحسب قول

الربّ: «بين المولودين من النساء ليس نبيّ أعظم من يوحنّا المعمدان» (لو٧: ٢٨)

يوحنّا المعمدان هو الأعظم. السبب هو تكرّسه العنيف ليسوع المسيح الذي كان تعبير تكرّسه العنيف لحقيقة الله وعدالته. برّ يوحنّا وشفافيّته اللذان لا مساومة فيهما هما سبب عظمته. لم يشهد القيامة. لم يصنع عجائب، عندما كان حيّاً. لم يكتب كتاباً. لم يكن من المدعوّين «أسراريّين». لكنّه كان ناسكاً ونبيّاً. عاش من أجل الله فقط. وحمل الشهادة لوصايا الربّ حتّى الرمق الأخير. لهذا تكرّمه الكنيسة، وتمجّده ليس فقط في الحبل به وفي ميلاده وفي ذكرى قطع رأسه، بل أيضاً في عيد جامع على شرفه في اليوم الذي يلي معموديّة السيّد.

«تذكار الصدّيق بالمديح
أمّا أنت أيّها السابق فتكفيك شهادة الربّ
لأنّك ظهرت بالحقيقة أكثر وقاراً من كلّ الأنبياء
إذ قد استأهلت أن تعمّد في المجاري من قد كرزوا به
ولذلك إذ جاهدت عن الحقّ مسروراً
بشّرت الذين في الجحيم بالإله الظاهر بالجسد
الرافع خطايا العالم والمانح إيّانا الرحمة العظمى»[١].

«إنّ السيّد قد سبق فدعاك نبيّاً
يا من هو أرفع شأناً من الأنبياء
وأعظم من الكلّ في مواليد النساء
لأنّ المسيح الذي سبق الأنبياء والناموس فأخبروا عنه
قد أبصرته أنت بالجسد
وإذ قد عمّدته ظهرت أشرف من جميعهم»[٢].

---

(١) طروباريّة القدّيس يوحنّا المعمدان.
(٢) خدمة سَحَر عيد القدّيس يوحناّ المعمدان (٧ كانون الثاني).

«لقد وافيت أيّها الصابغ من الأوجاع العقريّة
ملاكاً وساكناً القفر منذ عهد الأقمطة
وظهرت خاتمة جميع الأنبياء
فإنّ ذاك الذي شاهده أولئك بأنواع مختلفة
وسبقوا فكرزوا به برموز
قد استأهلت أنت أن تعمّده في الأردن
وسمعت من السماء صوتاً أبوياً شاهداً ببنوّته
ورأيت الروح بهيئة حمامة
مجتذباً الصوت إلى المصطبغ
فيا من هو أعظم الأنبياء كافّة
لا تزل متشفّعاً من أجلنا نحن المقيمين تذكارك بإيمان»[1].

❖

(١) خدمة سَحَر عيد القدّيس يوحنّا المعمدان (٧ كانون الثاني).

٣٧

الأقمار الثلاثة

كثيرة هي الأعياد التي تلي الظهور الإلهيّ، طيلة شهر كانون الثاني. وتقيم الكنيسة تذكارات القدّيسين الكبار أمثال أغناطيوس الأنطاكيّ، غريغوريوس النيصصيّ، غريغوريوس اللاهوتيّ، يوحنّا الذهبيّ الفم، مكسيموس المعترف، أثناسيوس وكيرلس الإسكندرانيّان، مرقس الأفسسيّ، وقدّيسين رهبان مثل أنطونيوس الكبير، بولس البسيط، مكاريوس المصريّ، أفتيميوس، ثيودوسيوس وأفرام السريانيّ. ولا تغيب القدّيسات عن هذا الشهر أيضاً فتقام تذكارات القدّيسات دومينيكا وتاتيانا وكسينيا. إنّه بالحقيقة أغنى زمن طقسيّ في السنة من أجل تأمّل القداسة المسيحيّة.

في الثلاثين من كانون الثاني، تحتفل الكنيسة بعيد الأقمار الثلاثة: باسيليوس الكبير، رئيس أساقفة قيصريّة الكبادوك، غريغوريوس اللاهوتيّ، أسقف نزينز ورئيس أساقفة القسطنطينيّة، ويوحنّا الذهبيّ الفم الأنطاكيّ، رئيس أساقفة القسطنطينية. يعرف هذا اليوم عند الأرثوذكس بعيد المعلّم أو عيد المدارس اللاهوتيّة والكنسيّة.

«هلمّوا بنا نلتئم جميعاً
ونكرّم بالمدائح الثلاثة الكواكب العظيمة
للاهوت المثلّث الشموس
الذين أناروا المسكونة بأشعّة العقائد الإلهيّة

أنهار الحكمة الجارية عسلاً
الذين رووا الخليقة كلّها بمجاري المعرفة الإلهيّة
أعني بهم باسيليوس العظيم،
وغريغوريوس المتكلّم بالإلهيّات
مع يوحنّا المجيد الذهبيّ اللسان
لأنّهم يتشفّعون إلى الثالوث من أجلنا
نحن المحبّين أقوالهم»(١)

شكّل الأقمار الثلاثة نماذج مختلفة. فباسيليوس الكبير (+٣٧٩) رجل كنيسة مجتهد ومفكّر صلب وراعٍ عطوف، ومدافع متين عن الأرثوذكسيّة وقائد رهبانيّ. أمّا غريغوريوس اللاهوتيّ (+٣٨٩) فكان صديقه الأقرب. التقيا في جامعة أثينا حيث درسا الأدب والخطابة والفلسفة، وهجرا كلّ شيء من أجل اتّباع المسيح. وبعد أن قضيا سويّة زمناً في الوحدة الرهبانيّة، حمل باسيليوس لواء الدفاع عن ألوهيّة المسيح كما حدّدها مجمع نيقية. وصار أسقفاً وضغط على صديقه العزيز حتّى يصير أسقفاً أيضاً لكي يدافعا عن الإيمان الأرثوذكسيّ.

كان غريغوريوس إنساناً مرهفاً تأمليّاً، وشاعراً. رقيق الإحساس. لم ينجح كثيراً كراع، لكنّه لاهوتيّ عظيم. عظاته حول الثالوث القدّوس التي ألقاها على جماعة صغيرة من المؤمنين الأرثوذكس في القسطنطينيّة، عندما كانت كاتدرائيّتها وجموع المدينة الغفيرة بين الهراطقة الآريوسيّين، بقيت من كلاسيكيّات اللاهوت الأرثوذكسيّ.

يوحنّا الذهبيّ الفم (+٤٠٧) كان مبشّراً ناريّاً. دعي بالذهبيّ الفم، لأنّه أعطي موهبة الخطابة. القدّيس يوحنّا أرثوذكسيّ صلب في كلّ تعاليمه، لكنّه لم يسمّ لاهوتيّاً. يُذكر ويُمدح بالأكثر على تعاليمه في

(١) طروباريّة عيد الأقمار الثلاثة.

الحياة المسيحيّة، وكلماته النبويّة حول الشرّ واللاعدالة، ورعايته الفقراء والمظلومين، ومواقفه الشجاعة أمام الذين يمزّقون إنجيل المسيح ويخونونه، خصوصاً أصحاب المراكز العليا والمسؤوليّات الرفيعة. مات في المنفى، مبعداً عن كنيسته في العام ٤٠٧.

أحاطت بالأقمار الثلاثة جماعة صغيرة من المؤمنين المؤيّدين لهم، بمن فيهم أعضاء عائلاتهم، الذين ساعدوهم وألهموهم في سائر أعمالهم، أمّ القدّيس باسيليوس وجدّته، إميليا ومكرينا، وأخته مكرينا مع أخيه غريغوريوس النيصصيّ أيضاً اعتبروا من قدّيسي الكنيسة. القدّيس باسيليوس وأخوه غريغوريوس اعتبرا أختهما مكرينا معلّمتهما العظمى. أمّ القديس غريغوريوس اللاهوتيّ نونا قدّيسة أيضاً. قال الأب القدّيس في رثاء والدته إنّ كلّ ما عنده في الربّ قد أعطته إيّاه أمّه، بما في ذلك حياته الروحيّة وليس حياته الجسديّة فقط. أخت القدّيس غريغوريوس ثيوسيبيا، التي يظنّ البعض أنّها كانت زوجة القدّيس غريغوريوس النزينزيّ، مدحها أخوها وسمّاها «أعظم من الكهنة»، مع أختها غورغونيا. أنثوسا أم القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم هي قدّيسة أيضاً. صديقه الأفضل وزميله في الخدمة كان امرأة هي الشمّاسة أولمبيا، التي أهداها أكثر رسائله تأثيراً في نهاية حياته. لهذا نجد هؤلاء الأساقفة العظام لاهوتيّين ومبشّرين ما كانوا وحيدين في جهادهم. كانوا بحسّ واقعيّ نتاج مجتمع إيمان، وتقوى وعلم، كما نتاج قادة ومعلّمين.

إذا تأمّلنا في حياة القدّيسين باسيليوس وغريغوريوس ويوحنّا وأعمالهم نتأكّد، أكثر من أي شيء آخر، كيف أنّ مجموعة صغيرة من المؤمنين تستطيع أن تفعل الكثير لتهذيب الكنيسة وفائدتها ولأجل خلاص النفوس. نستطيع أن نرى أيضاً كيف أنّ ما من أحد يستطيع أن يعيش

في عزلة، وكيف أنّ القدّيسين العظام احتاجوا إلى قدّيسين آخرين يلهمونهم ويشجّعونهم، يرشدونهم ويدعمونهم في خدمتهم.

نلمس أيضاً أنّ الذكاء والعلم ليسا كافيين. عقول الناس يجب أن تتكرّس لله والحكمة الإلهيّة والحقّ، لكن على المرء أن يحبّ الله ليس من كلّ عقله فقط، بل من كلّ قلبه ونفسه وقوّته أيضاً. عرف الأقمار الثلاثة النسك والصلاة الحارّة. كانوا رجال كنيسة، لا رجال أكاديميّة. لم يرغبوا بالتبشير فقط، إنّما بتطبيق ما يبشّرون به، لا بالكلام فقط بل بالعمل أيضاً لا بالعمل فقط بل بالتألّم من أجل كلمة الله الذي أتى بذاته إلى العالم لا ليبشّر فقط، بل ليتألّم ويموت من أجل خلاص الجميع.

اتّسم الزمن الذي عاش فيه هؤلاء القدّيسون الثلاثة بالاضطراب في الكنيسة. لم يكن، بالتأكيد، أقلّ ظلاماً وقلقاً من زمننا الحاضر، وربما حتّى كان أكثر منه في نواحٍ عديدة. لكن هؤلاء الرجال، والنساء اللواتي وقفن إلى جانبهم، كانوا قادرين على حفظ أمانتهم حتّى النهاية. لأنّه بسبب هؤلاء الناس في الماضي، نحن عندنا حياة مسيحيّة في كنيسة اليوم.

«لنكرّمنّ كما يليق آلات النعمة وقيثارات الروح
وأبواق الكرازة الحسنة النغمة
والرعود القاصفة من العلاء
بالأمور المخوفة والمشتهرة
المذيعة في الأقطار مجد الله
أعني باسيليوس وغريغوريوس مع يوحنّا
الثلاثة الكارزين بالثالوث العظيم»

«يكرَّم بحسب الواجب المناضلون عن الثالوث
ونموذج العبادة الحسنة
الرسل الثلاثة بعد الاثني عشر

الأنهار المتدّفقة بالماء الحيّ من عدن
والمروّية وجه الأرض بمجاريها الإلهيّة
المفيضة الحياة والعناصر العظيمة
الناظمة الإيمان بمثابة خليقة»

«لنبوّق ببوق النشائد
ونتهلّل في التعييد
ونتباشر مبتهجين
بموسم معلّمينا الكلّيّي الاحتفال
وليبادر الملوك والرؤساء ويقرّظوا بالمدائح
رؤساء الكهنة
بما أنّهم يفيضون ثلاثة أنهار فائقة العظمة
للعقائد حسنة التسلسل
ومحيية للروح على الدوام».

«لنجتمع أيّها الرعاة والمعلمون
ونمدح الثلاثة الأمناء على أسرار الثالوث الموقّر الشريفة
وليمدح محبّو الحكمة الحكماء
والكهنة الرعاة
والخطأة الشفعاء
والمساكين المغنّين
والحزانى المعزّين
والمسافرون الرفقاء
والذين في البحر المدبّرين
ونحن جميعاً فلنقرّظ رؤساء الكهنة الإلهيّين
الملبّين بحرارة في كلّ مكان

قائلين هكذا
أيّها المعلّمون الكلّيو القداسة
تداركوا في نجاتنا نحن المؤمنين من معاثر العمر
وإنقاذنا من التعذيبات الأبديّة»[١].

❖

(١) خدمة غروب عيد الأقمار الثلاثة.

٣٨

دخول السيّد إلى الهيكل

يصل موسم الميلاد - الظهور إلى نهايته في عيد دخول السيّد إلى الهيكل الذي يقع في اليوم الثاني من شباط، أي بعد أربعين يوماً من عيد الميلاد. وعلى غرار الأعياد السيديّة الأخرى يودّع عيد دخول السيّد بعد ثمانية أيّام من الاحتفال به. وبذا تُختم الدورة الليتورجيّة التي بدأت بصوم الميلاد.

«ولمّا تمّت أيّام تطهيرها، حسب شريعة موسى، صعدوا به إلى أورشليم ليقدموه للربّ، كما هو مكتوب في ناموس الربّ: أنّ كلّ ذكر فاتح رحم يدعى قدّوساً للربّ. ولكي يقدّموا ذبيحة كما قيل في ناموس الربّ: زوج يمام أو فرخي حمام» (لو٢: ٢٢-٢٤).

وتوضح صلوات العيد لماذا خضع المسيح لناموس موسى وأتمّه. رأينا هذا، من قبل، في عيد الختانة. أتى الربّ ليقوم بكل الأشياء التي يطلبها ناموس الله وهكذا فيه (المسيح) يتحقّق ملء الناموس حرفياً وبكلّ تفاصيله، وهذا الإتمام يُعطى لكلّ الذين يقبلون المسيح.

«إنّ الذي أعطى موسى الشريعة في سيناء قديماً
يخضع اليوم لرسوم الشريعة
صائراً من أجلنا على مثالنا
بما أنّه المتحنّن والإله الطاهر
قد فتح مستودعاً طاهراً كمثل طفل مقدّس

واختصّه لنفسه بما أنّه إله
معتقاً إيّانا من لعنة الناموس
ومنيراً نفوسنا»[١].

عندما دخل الربّ يسوع الهيكل مع يوسف ومريم، التقاه سمعان الشيخ وحنّة النبيّة. ومن هذا اللقاء استمدّ العيد اسمه (دخول، لقاء) في الكنيسة الأرثوذكسيّة[٢]. يكتسب هذا العيد مغزى لاهوتيّاً وروحيّاً. يقول لنا إنّ العتيق انتهى والجديد قد أتى. يقول لنا إنّ العهدين التقيا الآن: أتمّ إسرائيل مهمة إنتاج المسيح التي كلّفه الله بها. وتحقّقت كلّ الوعود التي أعطيت لإبراهيم في البدء. بزغ فجر مجد إسرائيل في شخص المسيح الذي دخل العالم اليوم «نوراً لاستعلان الأمم». في المسيح يستنير كلّ العالم ويخلص. العهد الجديد قد أتى. وتتأسّس جماعة عهد الله الأخير. وتتبارك جميع عائلات العالم بنسل إبراهيم. الشيخ سمعان والشيخة حنّة النبيّة اللذان التقيا يسوع في الهيكل وعرفاه لأنّه هو، الذي رمز إليه انقضاء العادات والطقوس والنواميس القديمة، التي كانت «*ظلّ الخيرات العتيدة لا نفس صورة الأشياء*» (عب ١٠: ١). لأنّه، كما قال بولس الرسول، النواميس القديمة كانت «*ظلاً فقط لما سيأتي لأنّ الجوهر يعود للمسيح*» الذي جلب إلى العالم «*خليقة جديدة*» (كول٢: ١٧، ١ كو ٥: ١٧، غلا ٦: ١٥).

«وكان رجل في أورشليم اسمه سمعان، وهذا الرجل كان باراً تقيّاً ينتظر تعزية إسرائيل، والروح القدس كان عليه. وكان قد أُوحي إليه بالروح القدس أنّه لا يرى الموت قبل أن يرى مسيح الربّ. فأتى بالروح إلى الهيكل وعندما دخل بالصبيّ أبواه، ليصنعا له حسب عادة الناموس،

(١) خدمة غروب عيد دخول السيّد إلى الهيكل.
(٢) يُسمّى هذا العيد في الغرب المسيحيّ عيد تطهير مريم.

أخذه على ذراعيه وبارك الله وقال: «الآن تطلق عبدك يا سيّد حسب قولك بسلام. لأنّ عيني قد أبصرتا خلاصك، الذي أعددته قدّام وجه جميع الشعوب، نور إعلان للأمم، ومجداً لشعبك إسرائيل». وكان يوسف وأمّه يتعجّبان ممّا قيل فيه. وباركهما سمعان، وقال لمريم أمّه: «ها إنّ هذا قد وُضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل، ولعلامة تُقاوَم». وأنت أيضاً يجوز في نفسك سيف، لتُعلن أفكار من قلوب كثيرة. وكانت نبيّة، حنّة بنت فنوئيل من سبط أشير، وهي متقدّمة في أيّام كثيرة قد عاشت مع زوج سبع سنين بعد بكوريّتها. وهي أرملة نحو أربع وثمانين سنة، لا تفارق الهيكل، عابدة بأصوام وطلبات ليلاً ونهاراً. فهي في تلك الساعة وقفت تسبّح الربّ، وتكلّمت عنه مع جميع المنتظرين فداء في أورشليم». (لو ٢: ٢٥-٣٨).

تتحدّث قراءات العهد القديم التي تقرأ في صلاة غروب العيد عن أولاد إسرائيل الذين يطلب منهم ناموس موسى أن يُقدّموا إلى الهيكل، ذكوراً وإناثاً، مع ذبيحة وصلوات. كما تتحدّث عن رؤية النبيّ أشعياء للربّ جالساً على العرش في هيكل أورشليم، ونبوءته أنّ المصريّين، الذين يرمزون إلى عداوة الأمم أكثر من أي شعب آخر، بسبب اضطهادهم الطوعيّ للشعب العبرانيّ وإلهه، سوف يعرفون الربّ ويعبدوه[1].

«في ذلك اليوم يكون مذبح للربّ في وسط أرض مصر، وعمود للربّ عند تخمها. فيكون علامة وشهادة لربّ الجنود في أرض مصر. لأنّهم يصرخون إلى الربّ بسبب المضايقين، فيرسل لهم مخلّصاً ومحامياً وينقذهم. فيعرف الربّ في مصر، ويعرف المصريّون الربّ في

(١) قراءات العهد القديم في صلاة غروب العيد منتقاة من أسفار الخروج واللاويّين والعدد، بالإضافة إلى قراءتين من أشعياء الفصل ٦ والفصل ١٩.

ذلك اليوم، ويقدّمون ذبيحة وتقدمة، وينذرون للربّ نذراً ويوفون به». (أش ١٩: ١٩-٢١).

ليس مصر فقط، بل العالم كلّه استقبل المخلّص في شخص المسيح الربّ، الماسيّا، الذي هو نفسه الربّ في جسد بشريّ. هذا هو الإعلان المدهش لعيد دخول السيّد إلى الهيكل. إنّه سبب الاحتفال العظيم الذي يختتم فصح الشتاء.

«إن المستوي على مركبات الشيروبيم
والمسبَّح بتسابيح السيرافيم
قد حملته والدة الإله مريم على ذراعيها
متجسّداً منها بدون أن تعرف زواجاً
ودفعت المعطي الشريعة، متمّماً نظام الشريعة
إلى يدي الكاهن الشيخ
فلمّا حمل الحياة
استمدّ عتقاً من الحياة قائلاً
الآن أطلقني أيّها السيّد
لكي أخبر آدم أنّني أبصرت طفلاً
الإله غير المستحيل
الذي قبل الأزل
والمخلّص العالم»[1].

«افرحي يا والدة الإله العذراء الممتلئة نعمة
لأنّه منك أشرق شمس العدل المسيح إلهنا
منيراً الذين في الظلام

---

(١) خدمة غروب العيد.

سُرَّ وابتهج أنت أيّها الشيخ الصدّيق
حاملاً على ذراعيك المعتق نفوسنا
والمانح إيّانا القيامة»[1].

❖

(١) طروباريّة العيد.

٣٩

تطهير مريم

تسمّي الكنيسة الغربيّة عيد دخول السيّد إلى الهيكل بعيد تطهير العذراء مريم. ويتمّ التركيز في العيد على اللقاء بين المسيح الطفل وسمعان الشيخ وحنّة النبيّة، وبخاصّة على مجيء العذراء إلى الهيكل لتتمّ أيّام تطهيرها. وهذا الوجه ليس غائباً عن ليتورجيا العيد الأرثوذكسيّة، لكنّه يعتبر ثانويّاً أو يدرج مغزاه في الدرجة الثانية. فنصّ العهد القديم الذي يتكلّم على التطهير بعد الولادة يقرأ في خدمة الغروب؛ لكنّ التراتيل لا تذكر شيئاً عن تطهير والدة الإله.

«وكلّم الربّ موسى قائلاً: ... إذا حبلت امرأة وولدت ذكراً.. في اليوم الثامن يختن لحم غرلته. ثمّ تقيم ثلاثة وثلاثين.. كلّ شيء مقدّس لا تمسّ وإلى المقدس لا تجيء، حتّى تكمل أيّام تطهيرها.... بعدها تأتي بخروف ذكر بدون عيب عمره سنة واحدة... وإذا لم تستطع، فتقدّم زوجي حمام أو فرخي يمام، الواحد يكون محرقة والثاني ذبيحة تكفير؛ ويكفّر الكاهن عنها فتطهر» (لاو ١٢).

نعرف عبر الكتاب المقدّس أنّ مريم ويوسف كانا من الفقراء، لأنّهما لم يقدّما حملاً ذبيحة بل زوجي حمام، كما تصوّر أيقونة العيد. وإنجيل لوقا لا يذكر شيئاً عن إمكانيّة تقديم حمل. ومع أنّ النبرة الليتورجيّة تشدّد على اللقاء، إلا أنّنا نرى أيضاً أنّ مريم أتت لتتمّ تطهيرها بحسب أوامر الناموس. هذا يعني أنّ بطنها قد انفتح وأنّ يسوع ولد منها مثلما

يولد سائر الأطفال من أمّهاتهم. مع أنّ الكنيسة تشدّد على بقاء مريم بعد الولادة عذراء وإلى الأبد عذراء، فإنّ العجيبة الوحيدة بما يخصّ ولادة الربّ هي الحبل العذريّ. لا يوجد أيّ تعليم من أي نوع عن عجيبة تخصّ ولادته، بالتأكيد ما من إشارة إلى أنّه ولد من أمّه بطريقة مختلفة.

لكنّ السؤال يبقى: ماذا يعني مجيء مريم «للتطهير»؟. من الواضح أنّنا لا نستطيع أن نستنتج وجود أيّة خطيئة متّصلة بحبلها بالربّ وولادتها إيّاه كإنسان. هذا التفكير يأتي آليّاً إذا اعتبرنا أنّ فعل العلاقة الجنسيّة يتضمّن خطيئة دوماً. أمّا في حالة مريم فالإنجيل وتقليد الكنيسة واضحان. لم تقم مريم بأيّة علاقة جنسيّة. تمّ حبلها بدون معرفة رجل. بدأ الربّ ينمو في بطنها بقوّة الروح القدس. إذاً ما معنى «تطهيرها»؟.

يعود الجواب إلى المفهوم الكتابيّ لمعنى «التطهير»[1].

فالكتاب المقدّس يعلّم أنّ كلّ الناس خطأة لكونهم من نسل واحد. هذا لا يعني أنّ كلّ الناس مذنبون شخصيّاً بـ «خطيئة آدم» التي تنكر العقيدة الأرثوذكسيّة توريث ذنبها لكلّ إنسان. إنّما تعتقد بأنّها غيّرت الطبيعة البشريّة التي صارت ساقطة في عالم ساقط. صارت قابلة للخطيئة

---

(١) تحافظ الكنيسة الأرثوذكسيّة على تقليد جلب المولود الجديد إلى الكنيسة المقدّسة لمباركته. ويكن ذلك عادة في اليوم الأربعين لولادته، أو عندما تستعيد الوالدة صحتّها وقوّتها وتستأنف نشاطاتها العاديّة، خصوصاً ارتيادها الكنيسة ومتابعة الخدم الطقسيّة واشتراكها في المناولة المقدّسة. وتطلب صلوات مباركتها التي تتلى في هذه المناسبة (دخولها الأول إلى الكنيسة بعد ولادتها)، غفران خطاياها وتطهيرها. وبجب ألا تُهم هذه الطلبات الاستغفاريّة على أنّها بسبب الولادة، وكأن أمر الحبل والولادة ناقص. يعلّم القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم بهذا الخصوص أنّ الذين يعتبرون الاتحاد الجنسيّ خطيئة إنّما يتهمون الله بالخطيئة، لأنّ الله هو من رتّب هذه الطريقة للتناسل. ويقول القدّيس يوحنّا إنّ الفعل الجنسيّ يكون فعلاً خاطئاً عندما يُستعمل بطريقة خاطئة، خارج إطار المحبّة والأمانة الزوجيّة. انظر يوحناّ الذهبيّ الفم، في تيطس، العظة ٢.

وآثارها هي الموت، المرض، الشرّ، الألم..... تنظر الأرثوذكسيّة إلى الإنسان كوحدة اجتماعيّة عضويّة. الطبيعة البشريّة التي يحملها كلّ إنسان طبيعة «ضلّت الهدف». (أن تخطئ يعني حرفيّاً أنّ تضلّ السبيل). فقدت الطبيعة البشريّة دعوتها. هذا لا يعني أنّ كلّ إنسان عندما يخطئ فهو يخطئ عن وعي وتصميم وقصد، بل إلى جانب كونه قادراً على فعل الخطيئة عن وعي وتصميم وقصد، إلا أنّه يحمل آثار الخطيئة في طبيعته.

إذاً، كمال البشريّة خارج السبيل. إنّها لا تتّجه إلى الهدف الذي خلقت من أجله، الذي هو كمال الحياة في الشركة مع الله. إنّها بشريّة مائتة ممزّقة، ضالّة السبيل، وساقطة. إنّها بتعبير معاصر، متغرّبة عن كيانها الحقيقيّ وعن هدفها الحقيقيّ. والعذراء مريم كسائر الكائنات البشريّة، كانت طبيعتها خاضعة للسقوط وللموت ككلّ البشر لمجرّد كونها كائناً بشريّاً.

يعلّم الكتاب المقدّس أنّ البشر جميعاً لا محالة في حالة السقوط في عالمنا الساقط هذا، وأنّ طبيعتهم تحتاج إلى «تطهير» بخاصّة عندما يتوجّه الإنسان إلى علاقة مع الله، وعندما يكون موضوع فعل إلهيّ مباشر. فالله يعمل دائماً في حياتنا.

وقد أوصت الشريعة الموسويّة بعلامات حسّيّة طقسيّة (كالذبائح) للتعبير عن طلب التطهير من أجل التقرّب من الله. وكانت قد حدّدت أوامر طقسية كثيرة للأوقات الحسّاسة المتّصلة بالحياة عند الإنسان كالموت والولادة والطمث والإلقاح...، بغية تطهير المؤمن ليصير قابلاً لفعل الله فيه.

هذا هو فهم الكتاب المقدّس والممارسة الطقسيّة «للتطهير». هكذا يتّضح الجواب عن السؤال المطروح سابقاً: لماذا أتت العذراء المباركة إلى

الهيكل «لتتطهّر»؟ ولماذا كلّ الذين يتبعون مثالها سيفعلون الأمر ذاته. لم تأتِ إلى الهيكل لأنّها ارتكبت فعلاً خاطئاً، بخصوص ولادتها المخلّص. لقد أتت لتظهر أنّها كائن مائت وبحاجة إلى الخلاص مع كلّ الخليقة. كانت مختارة لتكون المشارك الأكثر فعاليّة في عمل الله الخلاصيّ: تجسّد ابن الله الحقّ.

أن تستلزم المشاركة في «تطهير» كهذا لهو فعل فرح أعظم وشكر أعظم. إنّه أيضاً فعل يجلب المجد الأعظم والشرف الأعظم للتي هي «الأطهر».

«يا والدة الإله العذراء، رجاء كلّ المسيحيّين
احمي واحفظي وخلّصي
كلّ الذين يضعون رجاءهم عليكِ»

«لنعظّم أيّها المؤمنون
الابن البكر كلمة الآب الأزليّ
المولود بكراً لأمّ لم تعرف رجلاً
إذ قد شاهدنا في ظلّ الناموس والكتاب رسماً
وهو أنّ كلّ ذكر يفتح مستودعاً يدعى قدّوساً لله».

«يا والدة الإله العذراء
يا معونة العالم الصالحة
احفظينا واحرسينا من كلّ الضيقات والآلام».

«لقد كان يقرَّب قديماً فرخا حمام وزوجا يمام
فعوضاً من ذلك قد قُدِّم الشيخ الإلهيّ
وحنّة النبيّة العفيفة
للمولود من البتول

الذي يقدَّم إلى الهيكل وهو ابن الآب
فخدماه معظّمين
أيّتها الأمّ العذراء النقيّة
لقد تمّ فيكِ ما يفوق
فهم الملائكة والبشر المائتين».

«إنّ سمعان هتف قائلاً
لقد منحتني أيّها المسيح بهجة خلاصك
فخذ إليك عبدك الثاوي في الظلال كارزاً إلهياً
ومساراً جديداً للنعمة
معظّماً إياك بالتسبيح».

«إنّ الحمامة النقيّة
أمّ الحمل التي بلا عيب
تجلب الراعي والحمل إلى هيكل الله»

«إنّ حنّة النبيّة العفيفة
والشيخة البارة
قد اعترفت كما يليق بالله
شاكرة السيّد في الهيكل جهاراً
وكرزت بوالدة الإله وعظمتها أمام جميع الحاضرين»[١].

❖

(١) الأودية التاسعة من قانون السَحَر، يرتّل أيضاً في قدّاس عيد دخول الربّ إلى الهيكل.

٤٠

عيناي قد أبصرتا خلاصك

عندما حمل سمعان الشيخ المسيح الطفل على ساعديه، في اليوم الأربعين لميلاده، قال إنّه صار جاهزاً للموت. صار باستطاعته الانطلاق بسلام لأنّ عينيه قد أبصرتا المسيح الربّ، الخلاص الذي أعدّه الله منذ تأسيس العالم قد كُشف الآن في حضرة جميع الناس. بحسب إنجيل لوقا، رتّل سمعان ترتيلة عندما حمل المسيح الطفل على ساعديه وبارك الله أباه. وصارت هذه الترنيمة جزءاً من الليتورجيا الأرثوذكسيّة وترتّل في كلّ صلاة غروب.

«الآن أطلق عبدك أيّها السيّد بسلام
فإنّ عيني قد أبصرتا خلاصك
الذي أعددته لكلّ الشعوب
نوراً لاستعلان الأمم ومجداً لشعبك إسرائيل(١)».

يردّد المسيحيّون في غروب كلّ يوم كلمات الشيخ سمعان هذه. غروب اليوم في التقليد الليتورجيّ الأرثوذكسيّ هو بدء اليوم الجديد (يقول الكتاب المقدّس: «**وكان مساء وكان صباح، يوم واحد**» (تك١: ٥)، لأنّ كلّ الذين التقوا الربّ هم حاضرون للموت، لأنّ عيونهم قد أبصرت خلاص العالم.

---

(١) انظر لو ٢: ٢٩-٣٢.

لقد ألهم الروح القدس الشيخ سمعان لكي يذهب إلى الهيكل ويلتقي يسوع الطفل، وكان الروح القدس قد ألهمه قبلاً أنّه لن يرى الموت قبل أن يرى مسيح الله. وأوحي إليه بأنّه سيميّزه عندما يراه. وسوف يخبر أنّه الماسيّا الذي «**وضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل، ولعلامة لا تُقاوَم.. لتُكشف أفكار من قلوب كثيرة**» (لو٢: ٣٤-٣٥). وأوحي إليه بأن يتنبّأ بالآلام التي ستكابدها مريم أمّه عندما سيُعلّق على الصليب، مقدِّماً حياته من أجل حياة العالم. هكذا تفسّر الكنيسة كلماته المتعلّقة بالسيف الذي سيجوز قلب مريم (لو ٢: ٣٥).

أوحي إلى سمعان بالروح القدس بأن يلتقي بيسوع المسيح، ليرى ويشهد. بالتأكيد رأى أموراً ما رآها، ولن يراها، غيره أبداً. لأنّه كان «**باراً تقياً ينتظر تعزية إسرائيل والروح القدس كان حالا عليه**» (لو٢: ٢٥). وماذا شاهد سمعان؟ رأى بالروح القدس، بالتأكيد، ما لا يُستطاع التعبير عنه بشريّاً وأكثر ممّا رأى كثيرون. لكن بالتأكيد أقلّ ممّا نرى نحن الذين نعيش في القرن الحادي والعشرين من الزمن المسيحيّ.

نحن الذين نعيش في كنيسة المسيح اليوم قد رأينا يسوع الطفل. لكنّنا قد رأينا المسيح الذي ينمو أيضاً. رأينا الربّ ليس كطفل صغير ذي أربعين يوماً. بل تعلّمنا من بشارة الملاك للعذراء.. أُعطينا بصيرة في ولادته العجيبة. لاحظنا ختانته في اليوم الثامن، ودخوله إلى الهيكل ولقاءه مع سمعان الشيخ وحنّة النبيّة في اليوم الأربعين. وقفنا عند نهر الأردن وشاهدنا لقاءه مع القدّيس يوحنّا المعمدان. أصغينا إلى شهادة السابق، صديق العريس الذي أُرسل لكي يهيّئ طريقه. وكنّا حاضرين في المعموديّة ظهوره في الأردن. سمعنا صوت الآب ورأينا الروح القدس نازلاً ومستقرّاً عليه، وماسحاً إيّاه مسيحاً للربّ، مسيح الله الذي هو الربّ ذاته، الابن المحبوب لله. تبعناه إلى الصحراء، عندما جُرِّب من إبليس.

رأينا كلماته ولاحظنا عجائبه ووُجهنا بسؤاله: من تقولون إنّي أنا؟. وأجبنا مع بطرس وكلّ الرسل: أنت المسيح، ابن الله الحيّ. ذهبنا معه إلى أورشليم. أكلنا معه في العلّيّة، وتمتّعنا بوليمته السيّديّة، بعقول سامية. وقفنا بجانب الصليب. ذهبنا إلى القبر. ورأيناه قائماً وممجّداً. نفخ فينا الروح القدس وأعطانا إيّاه. ألسنة النار التي حلّت على الأرض قد حلّت علينا. مُسحنا بروحه القدّوس، وامتلأنا بقوّة من العلاء - الروح القدس ذاته الذي حلّ على سمعان الشيخ ليعرف أنّه لن يموت قبل أن يرى المخلّص، هذا الروح الذي قاده ذلك اليوم إلى الهيكل، وحرّكه ليرتّل الترنيمة التي نرتّلها مساء كلّ يوم: الآن أطلق عبدك بسلام!

عيوننا رأت حقّاً خلاص الله. لأنّنا رأينا المسيح. وأكثر رأينا الذين رأوا المسيح. رأينا سمعان وحنّة، ومعهما مريم العذراء ويوسف الصدّيق. رأينا السابق يوحنّا، مع كلّ الرسل. رأينا خلفاءهم وأسلافهم. رأينا الفتية الثلاثة في أتون النار في بابل، وشاهدناهم يرتّلون ويتمشّون في وسط اللهيب. رأينا اجتماع الأجداد والجدّات، واحتفلنا بذكراهم بفرح. لاحظنا البطاركة والأنبياء الذين أخبرونا عن مجيء المسيح. وعندما ظهر، رأينا الذين التقوه والذين استقبلوه. تبعنا الرسل، شاهدنا المعترفين والشهداء، ورتّلنا مدائح لدمهم المهراق الذي صار بذار الكنيسة. ومجّدنا قدّيسي العهد الجديد، الآباء والأمهات: باسيليوس، غريغوريوس، يوحنّا، مكرينا، نونا، أنثوسا... والقدّيسين الذين لا يحصى عددهم الذين رأوا الربّ وأحبّوه خلال العصور السابقة وحتّى أيامنا وصولاً إلى قدّيسنا هرمان وأبينا ألكسندر المحبوب.

وإذا أردنا أن نتكلّم بشريّاً نقول: إنّنا رأينا أكثر بكثير ممّا رآه سمعان الشيخ في ذلك اليوم في الهيكل. أكثر بما لا يُقارن! وبعد، وبحزن، يجب أن نقول إنّنا قد رأينا بعيني روحنا أقلّ بما لا يُقارَن. إذا كان الأمر هكذا،

فإنّه ليس خطأ الربّ. لأنّه عمل كلّ شيء حتّى نراه بالروح القدس في وسط كنيسته. عمل كلّ شيء حتّى تتحقّق كلمات رسالة بطرس الرسول فينا مباشرة:

«مبارك الله أبو ربّنا يسوع المسيح ، الذي حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانية لرجاء حيّ ، بقيامة يسوع المسيح من الأموات ، لميراث لا يفنى ولا يتدنّس ولا يضمحلّ ، محفوظ في السماوات لأجلكم ، أنتم الذين بقوّة الله محروسون ، بإيمان ، لخلاص مستعدّ أن يُعلَن في الزمان الأخير . الذي به تبتهجون ، مع أنّكم الان ، إن كان يجب ، تُحزَنون يسيراً بتجارب متنوّعة ، لكي تكون تزكية إيمانكم ، وهي أثمن من الذهب الفاني ، مع أنّه يُمتحن بالنار ، تُوجَد للمدح والكرامة والمجد عند استعلان يسوع المسيح . الذي وإن لم تروه تحبّونه. ذلك وإن كنتم لا ترونه الان لكن تؤمنون به ، فتبتهجون بفرح لا يُنطَق به ومجيد ، نائلين غاية إيمانكم خلاص النفوس» (١ بط ١ : ٣-٩).

لم نرَ المسيح بعيوننا البشريّة، ولا نراه بها الآن. لكنّنا نؤمن به ونحبّه ونفرح به فرحاً جزيلاً لا يُوصَف. رأيناه، بعيون روحنا، عندما ألهمنا الروح القدس. ونحتفل في الكنيسة كلّ عام بمجيئه في فصح الشتاء.

«إنّ المستوي على الشيروبيم
المسَبَّح بتسابيح السيرافيم
قد حملته والدة الإله مريم على ذراعيها
متجسّداً منها بدون أن تعرف زواجاً
ودفعت المعطي الشريعة متمّماً نظام الشريعة إلى يدي الكاهن الشيخ
فلما حمل الحياة استمدّ عتقاً من الحياة قائلاً
الآن أطلقني أيّها السيد
لكي أخبر آدم أنّني أبصرت طفلاً

الإله غير المستحيل
الذي قبل الأزل والمخلّص العالم».

«لقد هتف سمعان قائلاً
تقبّل أيها الشيخ على يديك الخالق الكلّ
واحتضن المسيح الذي ولدته الفتاة البتول بغير زرع
لابتهاج جنسنا».

«أيّتها البتول إنّ الذين استأهلوا بالجسد
أن يعاينوا الله قد كرزوا بكِ عروساً لمجد الآب ولاهوته
وفتاة والدة الإله الكلمة ومسكناً للروح القدس. لأنّه قد حلّ فيكِ بالجسد كلّ كمال اللاهوت إذ قد تكاملت فيكِ النعمة»[1].

❖

(١) خدمة غروب اليوم الأخير قبل وداع عيد الدخول.

مطرانية بصرى حوران وجبل العرب والجولان
للروم الأرثوذكس